"أنكم قد تحصنتم منى بالجبال،

فأخرجوا إلى الصحراء حتى نلتقى،

فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا

بكم أرحت المسلمين من شركم"

عماد الدين زنكى مخاطبا الأمبراطور البيزنطى

وفى هذه الأثناء ظهر البطل عماد الدين زنكى أول من آمن بضرورة تكوين جبهة موحدة لمقاومة الصليبيين، بعد أن كانت إدارة القتال ضد الصليبيين تعتمد على تحالفات بين أمراء الأمارات الإسلامية المختلفة، التى يقف إختلاف وجهات نظر حكامها وقلة مواردها حجر عثرة أمام زيادة قواتها، وأن أستطاعت إستراتيجية التحالفات أن تجنب بلاد الشام سقوط مدنها الداخلية الكبرى كحلب ودمشق وحمص تحت براثن الصليبيين، فمما يحسب للصليبيين تكتلهم ونسيانهم خلافاتهم إذا ما واجهوا قوات إسلامية، وإن كان ذلك لإستشعارهم الخطر ووجودهم وسط بحر من الأعداء، فى الوقت الذى تشرذمت فيه القوى الإسلامية بل وحاول البعض الإستعانة بالصليبيين ضد أخوانهم، بينما تجول الصليبيون بمنتهى الحرية فى الشام يهاجمون ما شاءوا من المدن، ووصلت أحلامهم إلى إحتلال دمشق وحلب وحماة، محاولين إتمام إلتهام الشام ككل، طوال ثلاثين عاماً مرت على الوجود الصليبى بالشرق، ثلاثون عاماً مدة قليلة تاريخياً، ولكنها كانت بالتأكيد قاسية على معاصريها، ولكن بظهور زنكى بدأت القوى الإسلامية تتراص وتتلاحم تدريجياً مكونة نواة الجبهة الموحدة، مستفيداً من سيطرة مناخ عام بين المسلمين منادى بمقاومة المحتل،

كما دفع زنكى بأسرة بنى أيوب لصدارة مشهد الصراع ضد الصليبيين، ليعتلى بنى أيوب قمة العسكرية الإسلامية وتتبوء صدارة الجهاد ويتمكن صلاح الدين الأيوبى من تحرير بيت المقدس، وقد أدى إنهيار السلطنة السلجوقية، وإختفاء عاهل سلجوقى قوى، إلى إفساح المجال لنمو قوة الأتابكة التابعين للسلاجقة، حتى أستطاع عماد الدين

زنكى إنشاء دولة بشمال العراق والشام تصل لمصاف الدول المستقلة، لا ترتبط بالدولة السلجوقية إلا بخيط واهى قطعة نور الدين محمود[1]

تم تعيين زنكى أتابكاً[2] (521-541هـ/1127-1146م) للموصل ومربياً لأميرها ألب أرسلان بن السلطان محمود السلجوقى فى 1127م ليضم زنكى حلب فى يونيو 1128م لمحور المقاومة ويلحق بها حماة الواقعة على طريق المؤدى إلى دمشق سبتمبر 1130م وسنجار الواقعة على الطريق الواصل بين الموصل وحلب، ليستطيع زنكى تكوين جبهة قوية من شمال العراق وشمال الشام مما يشجعه على العمل ضد الصليبيين، فقام نائبه فى حلب الأمير سيف الدين سوار بالهجوم على أنطاكيا فى أبريل 1136م ليعود لحلب مثقل بحوالى سبعة ألاف أسير صليبى وغنائم لا تحصى، وكانت هذه الحملة الناجحة من نائب زنكى بمثابة الشرارة، فتشجعت دمشق وقام مقدم عساكرها الأمير بزاوش بالهجوم على طرابلس 531هـ/1137م، ليلتقى بأميرها الأمير بونز ليلقى بونز مصرعه فى المعركة 4 رجب531هـ/28مارس1137م والعديد من رجاله ويتم أسر جيرالد أسقف طرابلس[3]، هذا خلاف الغنائم التى أستولى عليها الدماشقة،

وفى 11 يوليه 1137م يلتقى زنكى بجيش بيت المقدس تحت قيادة الملك فولك تحت أسوار قلعة بعرين الخاضعة لسيطرة الصليبيين، عندما تظاهر زنكى بمهاجمة حصن بعرين[4] الضخم المسيطر على مدخل وادى البقيعة، ليستنجد كونت طرابلس ريموند الثانى[5] بخاله الملك فولك الذى يندفع بكامل قواته لحماية الحصن ومعه جودفرى شاربولو شقيق جوسلين الثانى كونت الرها، لتصل قوات بيت المقدس مرهقة بعد

---

1 تبدأ العلاقة بين الأسرتين عندما قاد عماد الدين زنكى جيشه المهزوم من قوات الخليفة المسترشد بالله بقيادة مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد 526هـ/1132م حتى يصل لمدينة تكريت التى كانت قلعتها تحت حكم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وأخيه الأصغر أسد الدين شيركوه، ليقدم نجم الدين خدمة العمر لعماد الدين زنكى، بمساعدته على عبور نهر دجلة القاطع للطريق بينه وبين مدينته الموصل، الأمر الذى يجلب على الأخوين غضب بهروز شحنة بغداد، ليتم طردهما من تكريت 532هـ/1137م فى نفس الليلة التى تستقبل فيها الحياة يوسف بن أيوب، وليحفظ عماد الدين الدين الذى طوقه به أيوب ويتم تعيين أيوب حاكماً على بعلبك، بينما تجذب كفاءة شيركوه العسكرية أنظار الجندى المتمرس فيتم إلحاقه بجيشه الرئيس، الذى يتدرج فى مناصبه سريعاً

2 الأتابك لفظ من جزئين ، أتا بمعنى أب ، وبك بمعنى الأمير ، فالمعنى أبو الأمير ، وهو المربى الذى أعتاد سلاطين السلاجقة تعينه لتعليم أبناءهم وإدارة أماراتهم حتى بلوغ الأمير السن الذى يسمح له بتولى زمام أمارته

3 وليم الصورى ج3 ص133

4 يطلق عليه الصليبيون أسم قلعة مونتفراند

5 خلف أباه بونز كونت طرابلس عقب مقتله 1137م

الرحلة الشاقة ليبادر زنكى بمهاجمتها فوراً، لتحل هزيمة ساحقة بالصليبيين قضت على معظم الفرسان اللاتين "وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب"[6]، ويقع كونت طرابلس فى الأسر، ويُقتل شقيق كونت الرها، ويفر ملك بيت المقدس فولك بأقصى ما يستطيع جواده ويحتمى بقلعة بعرين، التى يحاصرها زنكى، ويقذفها بالمجانيق ليل نهار، وأهتزت جدران القلعة لتبث الرعب الشديد، ولم يعد ثم موضع آمن داخل الأسوار[7]، حتى عدمت عندهم الأقوات وأكلوا الدواب[8] ولحوم جيادهم بعد أن لم يجدوا شيئاً سواها يقتاتونه[9] والقلعة مكتظة بالهاربين داخلها مع الملك فولك، الأمر الذى زاد من مشاكل التموين،

وملك بيت المقدس يستجدى الأمان من عماد الدين، ويجعر بأعلى صوته طالباً النجدة من مملكته، بينما يقوم زنكى بطم الأخبار ومنع وصول أى أنباء للمحاصرين، حتى أصبحوا لا يعلموا شيئاً من أخبار بلادهم، لشدة ضبط الطرق وهيبة زنكى على جنده[10]، فى الوقت الذى أرسلت دمشق قائد جيشها بزواش لمهاجمة مملكة بيت المقدس، ليهاجم الدماشقة نابلس ويتم تدميرها تماماً، ويتم تسليم قلعة بعرين وخمسين الف دينار على أن يفرج عن فولك ملك بيت المقدس المحاصر، الذى يعدو بفرسه سعيداً بنجاته،

ولكن هذا الإنتصار وحصار ملك بيت المقدس أدى إلى موجة عارمة من الدعوات لضرب الصحوة الإسلامية التى قد تؤدى إلى توحد القوى الإسلامية، فالوحدة الإسلامية تعنى إنهيار الكيان الصليبى بالشرق، "فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكى أن أخذ حصن بارين (بعرين) ومن فيه من الفرنج (الملك فولك) ملك بلادهم فى أسرع وقت لعدم وجود الحامى عنها، وإن المسلمين ليس لهم إلا قصد بيت المقدس، فحينئذاً إجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم"[11]

ليسرع الإمبراطور يوحنا كومنين (538-512هـ/1118-1143م)[12] بقيادة جيشه فى إتجاه أنطاكيا، منتهزاً فرصة الفوضى الضاربة فى الكيانات السياسية الصليبية لفرض

---

6 الكامل ج8 ص358
7 تاريخ وليم الصورى ج3 ص142
8 مفرج الكروب ج1 ص73
9 وليم الصورى ج3 ص143
10 الكامل ج11 ص51
11 الكامل ج9 ص86
12 هو أبن ألكسيوس كومنين،

نفوذه على الشمال الشامى وخصوصاً أنطاكيا، والإنتقام من الحنث الصليبى عن قسمهم لوالده ألكسيوس كومنين بتسليم الأراضى التى كانت تابعة لبيزنطة، ولما يمثله موقع أنطاكيا من أهمية بالغة للأمبراطورية البيزنطية، والطامع فى إعادة حدود دولته الأسيوية لما قبل الإنسياح السلجوقى، متشجعاً بالدعوات التى أرسلتها الأميرة المتمردة أليس بزواج إبنتها من ولد الأمبراطور، وهى الدعوات التى قاومها بارونات أنطاكيا والملك فولك، الذين سارعوا بزواج الأميرة الطفلة كونستانس ذات الربيع السابع من الأمير ريموند بواتيه[13]، الأمر الذى جعل الأمبراطور يوحنا يستشيط غضباً،

ليزحف الأمبراطور جنوباً بينما الأسطول البيزنطى يحمى جناح جيشه، بعد أن عقد إتفاقية مع السلطان مسعود السلجوقى لتأمين مؤخرة جيشه تنازل يوحنا بمقتضاها عن أنقرة وجانجرى لسلطان السلاجقة، ليفر الأرمن للإحتماء بالجبال ويقبع الصليبيون بحصونهم بعد أن أثارت ضخامة الجيش البيزنطى أرتياعهم، ويهاجم البيزنطيون مدينة طرسوس التابعة لأنطاكيا فأستولوا عليها بالقوة ومن بعدها أدنة والمصيصة وعين زربة[14] ليظهر البيزنطيون أمام أسوار أنطاكيا بعد أن غطى السهول المحيطة بها الألاف من الفرسان والمشاة، وأرتال من العربات الرومانية ذات العجلات الأربع، وآلات الحصار، ليجبر الخوف أميرها ريموند بواتيه على الخضوع للأمبراطور بموافقة الملك فولك، بعد إستجداء صليبى للصلح فى مفاوضات لحوحة، بشرط حضور ريموند وباروناته لقسم يمين التبعية الإقطاعية أمام الأمبراطور، وتسليمه أنطاكيا وقلعتها وقتما يشاء، ليتسلم الأمبراطور يوحنا المدينة ويرفرف العلم الأمبراطورى على برج أنطاكيا الرئيس،

وإن لم يصر على دخولها وطرد الصليبيين منها لتأكده من عجزه عن إستمرار سيطرته على المدينة عقب عودته لعاصمته، فرضى بإعلان أمير أنطاكيا تبعية أمارته لبيزنطة، وتم عقد إتفاقية بيزنطية صليبية تنص على مهاجمة عماد الدين زنكى وتحطيم قوته العسكرية، وإحتلال حلب وشيزر وحمص لإقامة إمارة جديدة يتولى إمارتها ريموند بواتيه على أن يكون تابع لبيزنطة، على أن يتنازل عن أنطاكيا لبيزنطة عقب ذلك،

---

[13] هو الأبن الأصغر للكونت وليم التاسع دوق أكيتانيا، وكان فى خدمة الملك هنرى الأول ملك إنجلترا، وجاء الشرق سراً بعد أن أرسلوا أحد فرسان الإسبتارية لإستدعاءه ليتزوج الأمير كونستانس بنت بوهيمند وريثة أنطاكيا عام 524هـ/1126م

[14] وليم الصورى ج3 ص135

ليهاجم يوحنا وحلفاءه الصليبيين أراضى حلب بعد قضاءه فصل الشتاء فى أرمينيا، ليحاصر الجيش المتحالف مدينة بزاعة ويحتلها ويتوجه لحصن تبنين، بينما حلب تستعد للمقاومة وتكاتب عماد الدين زنكى، الذى سارع بتعزيز حامية المدينة ليفقد الجيش البيزنطى الصليبى عامل المفاجأة بعد أن أضاع الكثير من الوقت أمام بزاعة ،

لتنهك قوات حلب الجيش البيزنطى الصليبى الذى كان يحاصر تبنين، ليجبر يوحنا على رفع الحصار عن المدينة العنيدة ويتوجه إلى حصن الأثارب ويستولى عليه ويكمل طريقه فى إتجاه شيزر الحصينة ذات الموقع الإستراتيجى الهام المسيطر على حوض نهر العاصى، وتدوى أصوات إرتطام الأحجار بسور القلعة، وسط مقاومة آل منقذ أصحاب القلعة، ويستنجد أميرها أبو العساكر سلطان، بعماد الدين زنكى، الذى يسارع بالزحف بجيشه والتمركز شمال المدينة على ضفاف نهر العاصى، ويراسل يوحنا مهدداً "أنكم قد تحصنتم منى بالجبال، فأخرجوا إلى الصحراء حتى نلتقى، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم"[15]، وذلك بالرغم من ميل ميزان القوة للجانب البيزنطى بشكل فاضح ولكن عماد الدين الذى كان "عنده من الدهاء والمكر شئ كثير"[16] نجح فى خداع يوحنا والإيحاء له بضخامة الجيوش الإسلامية، ويناور عماد الدين بقواته كأنه يريد إستدراج الجيوش المتحالفة لكمين، "ولم تكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه"[17] حتى عندما ألح القادة الصليبيون المرافقون له بالهجوم على جيوش عماد الدين قال لهم يوحنا "أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟، إنما يريد أن تلقونه فيجئ له من نجدات المسلمين ما لا حد له"[18]، فى الوقت الذى راسل عماد الدين الصليبيين والبيزنطيين كلاً على حدا لزرع بذور الفرقة بين قواتهما، لينهار تحالف الألداء، وسط تبرم الأمبراطور من تقاعس أمير أنطاكيا وكونت الرها فى القتال، وإنكبابها على قضاء وقتهما فى المقامرة، ويتم رفع الحصار عن شيزر بعد أن أهدى صاحبها بعض الهدايا للأمبراطور، ليسارع عماد الدين لإسترداد حصنى البزاعة والأثارب،

كل هذه الإنتصارات الإسلامية أدت إلى تدفق محاربى القبائل التركمانية للخدمة بجيوش زنكى، علاوة على بسط الأمن على المدن الإسلامية وخاصة حلب مما أدى إلى إنتعاش إقتصادى بها بسبب زيادة النشاط الزراعى والتجارى، مما أنصب فى زيادة القدرة على الإنفاق الحربى بالنسبة لدولة زنكى ،

15 الكامل ج9 ص91
16 مفرج الكروب ج1ص91
17 الكامل ج9 ص91
18 الكامل ج9 ص91

كما أستطاع زنكى بما مُنح من قدرات عسكرية وإدارية، وقادته الأكفاء مثل سوار بن أتكين بن تاج الملوك بورى الذى إستطاع الدفاع عن حلب والقيام بغارات ناجحة ضد أمارة أنطاكيا، "وكان له وقعات كبيرة مع الفرنج، أبان فيها عن الشجاعة والأقدام وصار له بسببها الهيبة فى قلوب الكفار"[19]، إستطاع فى أحداها الهجوم على قافلة صليبية ضخمة وإبادة كافة قوات الحراسة الخاصة بها، وكذلك القائد لجة الذى هزم قوات أنطاكيا فى 536هـ/1142م مما أسفر عن مقتل سبعمائة صليبى، مما أتاح لزنكى تفرغه لإتمام توحيد بلاد الجزيرة تحت حكمه، وإتمام تطويق إمارة الرها الصليبية ،

ولكن بقدر ما كان ظهور الأمير عماد الدين زنكى طوق نجاة للمسلمين ضد الصليبيين، قد ظهر من الأمراء من أختار الأرتماء بين أحضان الصليبيين بل والتحالف معهم ضد بنى جلدته، فقد قام معين الدين أُنر الوصى على دمشق بالتحالف مع الملك فولك، بعد أن وعى فولك والصليبيون أهمية مد يد الصداقة لأقلهم خطورة حتى حين، ووصل الأمر بتكوين جبهة من الصليبيين ودمشق ضد زنكى، وقام الملك فولك بمقتضى هذه المعاهدة بالزحف لدمشق عقب قيام زنكى بمحاصرتها لإجباره على فك الحصار، وهو ما كان لكراهة زنكى مقاتلة الجيشين الصليبى والدمشقى فوق أرض معادية[20]، بعد عقد إتفاقية بين أنر وفولك دفع أنر بمقتضاها مبلغ عشرين ألف دينار وعدد من رجالاته ليكونوا رهينه[21]

حتى أنه تم الأتفاق على هجوم مشترك على بانياس بعد إعلان حاكم بانياس إبراهيم أبن طرغت تبعيته لزنكى، وذلك تنفيذاً لباقى بنود المعاهدة بين أنر وفولك، حيث رأى أنر أن وضع بانياس فى يد الصليبيين الذين يتمتع بعطفهم خير من أن يراها فى قبضة خصم يخافه أشد الخوف ولا يطمئن إليه[22]، فقامت القوات الصليبية الدمشقية المشتركة بالهجوم على بانياس ومقاتلتها، وشدد الصليبيون فى هذه الأثناء الحصار بلا هوادة يعاونهم حلفاءهم الدماشقة الذين لا يقلون عنهم حماسة[23] مما أسفر عن مقتل أميرها وأستسلام بانياس يونيه 1140م، لتقوم القوات الصليبية بمذبحة بين سكانها تحت سمع وبصر معين الدين أنر الذى أحتفل بهذا الأنتصار بزيارة حلفائه فى مدنهم

19 زبدة الحلب ج2 ص245
20 تاريخ وليم الصورى ج3ص 177
21 وليم الصورى ج3 ص 175
22 وليم الصورى ج3 ص177
23 وليم الصورى ج3 ص178

فقام بجولة فى مدن الصليبيين، عكا وبيت المقدس ونابلس وحيفا وطبرية قوبل خلالها بحفاوة بالغة من حلفاءه،

ويستمر فولك فى منصبه حتى وافته منيته صريع سقوطه عن صهوة جواده أثناء مطاردة أرنب خلال رحلة صيد بمدينة عكا فى نوفمبر 1142م ليخلفه أبنه بلدوين الثالث الطفل تحت وصاية أمه، الذى يعتبر أول ملوك بيت المقدس المولودين بالشرق، لتتصدع المكانة المميزة التى كان يتمتع بها ملوك بيت المقدس على باقى الأمارات الصليبية التى لم يولى أمراءها أدنى إهتمام بعرش يجلس عليه طفل تحت وصاية أمرأة، كما أزدادت النزعات الإستقلالية لدى بارونات مملكة بيت المقدس التواقين للمزيد من الحرية ،

بدء بلدوين الطفل الواقع تحت وصاية أمه فترة حكمه بكارثة حلت بالصليبيين بسقوط أول أمارة أستطاع الصليبيون إنشاءها فى الشرق، فقد أختار زنكى أن يوجه ضربة للصليبيين فى مقتل بالهجوم على الرُها، تلك الأمارة الصليبية المتواجدة بشمال الفرات مستغلاً ضعف أميرها جوسلين الثانى (525-545هـ/1131م-1150م)،

وتكمن أهمية أمارة الرها بموقعها الإستراتيجى الهام لسيطرتها على الحوض الأوسط لنهر الفرات، وتحملها عبء الدفاع عن صليبى الشام ضد تحركات التركمان الذين كانت تعج بهم بلاد الجزيرة، وكذلك لسيطرتها على خطوط المواصلات بين بلاد الشام والعراق وأسيا الصغرى، ونظراً لأهميتها الدينية لدى الصليبيين الذين عدوها أشرف المدن الصليبية بعد بيت المقدس والقسطنطينية، وتستطيع الرها بموقعها قطع الطريق بين مدينتى زنكى الكبيرتين، حلب والموصل، لوقوع الرها على الطريق الرابط بينهما، كل هذا أدى إلى إدراك زنكى أهميتها وطموحه لتحريرها، مستغلاً ضعف أميرها جوسلين الثانى وركونه للدعة والرفاهية، وإتخاذه مدينة تل باشر مقراً له، ليبتعد عن القتال ويتفرغ لمجونه، وكذلك العداء الذى أستفحل بين كونتية الرها وأمارة أنطاكيا، وأتبع زنكى إستراتيجية القضم المتتابع ضد إمارة الرها، وذلك بالإستيلاء على المدن والقلاع التابعة لها، لإضعافها ومحاصرتها قبل الإنقضاض عليها وإلتهامها ،

بدء زنكى هجومه على الرها فى 28نوفمبر1144م، بعد أن تظاهر بقيامه بحملة ضد مدن ديار بكر التابعة للأراتقة، وبعد أن بث جواسيسه بالرها لنقل أخبار أميرها إليه، ليقوم أمير الرها بمفارقتها والذهاب لمدنه بالشام غرب نهر الفرات إعتقاداً منه بإنشغال زنكى بديار بكر، وما أن أعلم الجواسيس زنكى بمفارقة جوسلين الرها حتى

سارع زنكى بمهاجمتها، ويقوم بحصار أسوارها البالغة القوة، حصاراً فى منتهى الإحكام، منع جوسلين من إتصاله برجاله المدافعين عن الرها، بينما جوسلين يجبُن عن مواجهة زنكى وينتظر قوات النجدة بمدينة تل باشر، مغلقاً أذنيه أمام إستغاثات هيو الثانى رئيس أساقفة الرها اللاتينى، فى الوقت الذى رفض رئيس الأساقفة الثرى إنفاق بعض المال الذى يكتنزه للدفاع عن المدينة، فى الوقت الذى أحجم ريموند بواتيه أمير أنطاكيا (530-544هـ/1136-1149م) عن إنجاد جوسلين سواء بسبب العداء الذى إستفحل بينهما أو خوفاً من قوة زنكى الجبارة، فقد كانت الفرحة تغمر قلب أمير أنطاكيا للنكبة التى نزلت بالكونت جوسلين[24]، ويبادر زنكى بإرسال فوج من جيشه لضرب قوات النجدة القادمة من بيت المقدس بقيادة "منيس" كنوستابل المملكة وفيليب صاحب نابلس وألياند بورس أمير الجليل، ويرسل زنكى حفاروه لينقبوا سور الرها ويرفعون النقب الذى ينجحون فى فتحه بالأخشاب التى سرعان ما يغمروها بالكبريت والدهون الذائبة ويشعلوا فيها النيران، لتنهار بعد إحتراقها أخذةٌ معها جزء من سور المدينة، لينجح زنكى فى إقتحام المدينة فى 26 جمادى الأخر 539هـ/23ديسمبر 1144م، بعد حصار دام أربعة أسابيع،

وقد اثبت سقوط الرها مقدرة المسلمين على إحراز إنتصارات كبرى على الصليبيين، وأعاد الثقة والأمل إليهم، كما يعتبر سقوط الرها صفعة للصليبيين، فهى أول إمارة إستطاع الصليبيون أقامتها بالشرق، وكذلك لما لها من قدسية لديهم، وثرواتها الزراعية الكبيرة التى أتاحت لأمراء الرها ثروات كبيرة مكنتهم من تجهيز قوات قوية، كل هذا حُرم منه الصليبيين، علاوة على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين والإطاحة ببقايا الهيبة التى كانت تتوج فرسانهم، وينحصر الصليبيين بالشريط الساحلى بالشام بعد طردهم من الجزيرة بمواردها الغنية، الأمر الذى حد من قدرة القوات الصليبية على المناورة، وتطهير الطريق الواصل بين الموصل وحلب من الصليبيين، وجعل وادى نهر الفرات أرض إسلامية خالصة مرةٌ أخرى، وكذلك أظهر تحرير الرها مدى الضعف الذى أستولى على الصليبيين لدرجة فشلهم فى إتخاذ أى إجراء لإعادة سيطرتهم عليها ،

ويقوم زنكى بمهاجمة باقى مدن الأمارة بداية بسروج، ليلحقها بالرها فى يناير 1145م، وأثناء كل هذه الأنتصارات التى حققها زنكى قام أحد مماليكه بإغتياله فى سبتمبر 1146م أثناء حصاره قلعة جعبر، وقد فقد المسلمون بمقتل زنكى قائداً قوياً

[24] وليم الصورى ج3 ص238

مؤمناً بالجهاد ضد الغزاة لدرجة صياح شخص على قاتل زنكى "لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله" وأن كان القدر رؤوفا بهم بأن عوضهم بأبنه نور الدين محمود[25] (541-569هـ/1146-1174م) والذى كان لا يقل عن والده زنكى قوة وأيماناً بالجهاد وزاد عنه بورعه

أعتمد نور الدين أستراتيجية المباغتة والمفاجأة والسرعة فى تحريك قواته والمناورة بها، بما لا يدع مجال للصليبيين بتجميع قواتهم، لحالة الضعف التى أستولت على قوات الكيانات الصليبية بما لا يمكن لكيان واحد الفعالية فى القتال إلا بنجدات من قوات الكيانات الصليبية الأخرى، وكما أتبع أستيراتيجية القضم المتتابع بالإستيلاء على الحصون الصغيرة الواقعة على حدود دولته مع الكيانات الصليبية، إيماناً منه بأهمية هذه الحصون التى كانت تعتمد عليها الإستراتيجية الدفاعية للصليبيين، وقد مهد نور الدين الطريق لتحرير القدس، فقد أنهك نور الدين الصليبيين فى بلاد الشام حتى لم يعد لهم مطامع غير حفظ ما بإيديهم من البلاد[26]

أنقسمت دولة زنكى بين ولديه، الجزء الشمالى وقاعدته الموصل أستولى عليه أبنه البكر سيف الدين غازى، بينما ثبت أخيه الأصغر نور الدين محمود قدميه بحلب والجزء الشامى من مملكة عماد الدين زنكى، بناء على نصيحة ومجهودات شيركوه، فعقب وفاة عماد الدين زنكى أجتمع شيركوه بنور الدين وقال له "قد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسى ملكك، وتجتمع فى خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب أستظهر على بلاد الشرق"[27]، وقد حاول أعداء زنكى أستغلال أختفاءه من الساحة، وكان أشد هؤلاء الأعداء خطورة هو جوسلين امير الرها السابق الذى حاول إعادة الرها لحوزة الصليبيين، مما سيفقد أبناء زنكى مجدهم الكبير بتحريرها،

وبالفعل هاجم جوسلين الرها وإستطاع دخولها بمساعدة سكانها الأرمن، بعد أن راسلهم بمجرد سماعه أنباء مقتل عماد الدين زنكى، وأتاح له الأرمن تسلق اسوار المدينة هو ورجاله والإستيلاء عليها، بينما أحتمت الحامية الزنكية بقلعة المدينة واستبسلوا فى الدفاع عنها، التى حاصرها جوسلين وأرسل فى طلب المساعدة من باقى كيانات الصليبيين، ولكن كان هناك نور الدين الذى ما أن تطرق لسمعه هجوم جوسلين حتى سارع بجيشه ينهب الأرض لنجدة المدينة الأستراتيجية فى

25 ولد فى 511هـ/1117م
26 التاريخ الباهر ص125
27 الروضتين فى أخبار الدولتين ج1 ص191

541هـ/1146م، وما أن وصلها بعد خمسة أيام من سيطرة جوسلين عليها، حتى بادر جوسلين بالفرار بجيشه مذعوراً تحت ضغط مطاردة الفرسان المسلمين الذين قتلوا ثلاثة أرباع فرسان الصليبيين أثناء المطاردة بل وتم جرح جوسلين نفسه جرحاً بليغاً برقبته، ومقتل بلدوين حاكم مرعش الصليبى، وإعادة فرض السيطرة الزنكية على الرها فى 1146م،التى أستفاد نور الدين من أمكانياتها الضخمة فى تمويل حروبه وجهاده ضد الصليبيين،

وجرف تيار الجهاد نور الدين لمهاجمة أنطاكيا، التى أخذ فى مهاجمتها بصفة مستمرة حتى سلبها معظم أملاكها شرق نهر العاصى، مثل قلاع ومدن أرتاح وبسرفوث وكفرلاثا والأثارب طوال عامى 1146-1147م، كما آمن نور الدين بضرورة تكوين جبهة موحدة ضد الصليبيين ولكن ليس بنفس أسلوب أبيه، بل حاول فرضها بالدبلوماسية فقام بإرسال سلسلة سفارات لدمشق لتقريب وجهات النظر وتكوين تحالف ضد الصليبيين حتى أسفرت هذه السفارات عن عقد صلح بين حلب ودمشق فى مارس 1147م .

كان نجاح عماد الدين زنكى فى تحرير الرها ناقوس خطر أخذ يضرب فى ربوع أوروبا، ووجد له أذاناً صاغية فى بلاط لويس السابع Luois VII ملك فرنسا الشاب (1137-1180م)، فقد قامت الملكة ميلزندا بإرسال هيو أسقف جبلة للبابا يوجينوس الثالث (1145-1153)، وتم عقد مجمع كنسى فى فزلاى مارس 1146م برئاسة البابا يوجنيوس والقديس برنارد راعى دير كليرفو، ويجلجل صور برنار فى مستمعيه "أحملوا السلاح ولينفخ فيكم الغضب المقدس روح القتال، ويل للذين لا يخضب سيفه بالدم"[28] وأصدر البابا أمراً باباوياً للويس السابع بتحمل تنظيم حملة لإستعادة الرها مقابل الغفران عن حرقه كنيسة مدينة فيترى بفرنسا وقتله ثلاثة عشر ألف ضحية من مواطنيه عام 535هـ/1141م، أثناء إخماده ثورة ثيوبولد كونت شامبنى ضده ،

وليعلن كونراد الثالث Konrad III هوهنشتاوفن أمبراطور ألمانيا (1137-1152م) فى ديسمبر 1146م المشاركة فى الحملة، وبرفقته أخيه هنرى دوق النمسا، ومعه ملكين تابعين له، فلاديسوف ملك بوهيميا وبوليسلاف ملك بولندا، ليحمل عبئ الحملة الصليبية الثانية أكبر عاهلين فى أوروبا أينذاك، لتختلف الحملة الصليبية الثانية عن الحملة الصليبية الأولى، ففى حين أخذت الحملة الصليبية الأولى شكل هجرة شعبية تحت قيادة بعض كبار الأمراء الأوروبيين، أخذت الحملة الثانية شكل الجيوش الملكية

[28] صلاح الدين البطل الأنقى ص68

المحترفة تحت قيادة ملكا الدولتين المشتركتين فى الحملة ـ فرنسا وألمانيا ـ، والسبب فى ذلك تحسن العلاقات بين البابوية وملوك أوروبا بعكس العلاقات السيئة بين البابا أربان وملوك عصره خلال التحضيرات للحملة الصليبية الأولى ،

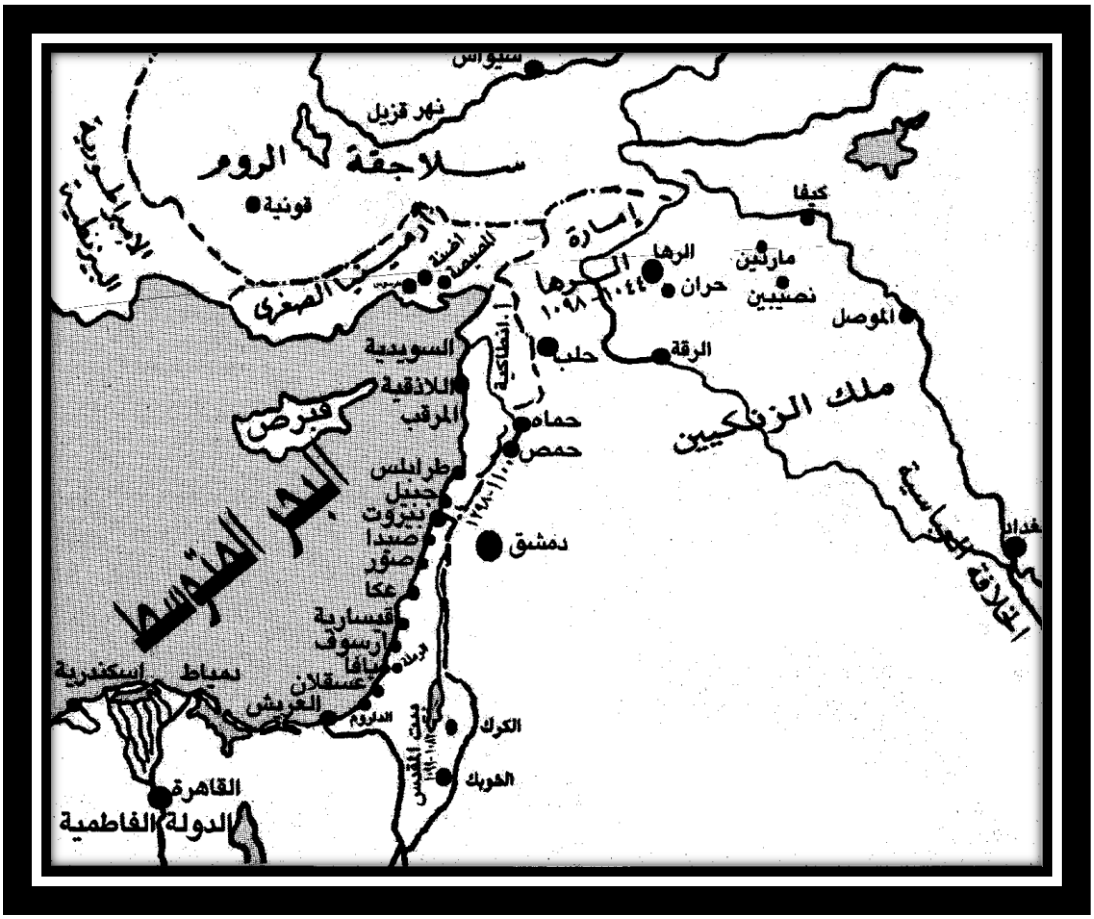

وقد عرض روجر الثانى ملك صقلية على لويس ملك فرنسا أستعداد صقلية توفير الدعم اللوجستى بإمداد الحملة بالمؤن وتوفير أسطول بحرى لنقل الحملة الفرنسية، وإن لم يكن هذا العرض لخدمة الحركة الصليبية، بل بسبب مطالبة روجر بحقوق له فى وراثة أنطاكيا، وهو ما رفضه لويس لوجود روابط عائلية بينه وبين أمير أنطاكيا الحالى ريموند دى بواتيه، ليعقد روجر الثانى تحالف مع الدولة الفاطمية لتأمين خطوط دفاعات صقلية، بينما هو يمخر بأسطوله عباب البحر الأدرياتيكى يهاجم الممتلكات البيزنطية فى 1147م ببحر إيجة ويستولى على جزيرتى كورفو وسيفالونيا

ويدمر الجزر الأيونية، لتزداد هوة الشك بين بيزنطة والحملة الثانية، فالجميع لاتين سواء لويس أو كونراد أو روجر ،

تم الأتفاق بين الجيشين الفرنسى والألمانى على أتخاذ نفس الطريق البرى الذى سبق وأتخذته الحملة الأولى، على أن يزحف الجيش الألمانى أولاً ويلحق به الجيش الفرنسى لعدم حدوث صعوبات فى التموين، وتجنب للإحتكاك الذى من الممكن حدوثه بين الفرنسيين والألمان، ويلقى جنود الحملة ترحيباً فاتراً أثناء زحفهم فى أوروبا، وينصب إهتمام سكان المدن المار بجوارها قوات الحملة عن البحث عن مكان للأختفاء، ولم يتلقى جنود الحملة أى أطعمة إلا التى تم أنزالها بالسلال من أسوار المدن المغلقة الأبواب، بعد دفع ثمنها نقداً أولاً، فى الوقت الذى كان الألمان يدفعون رتابة الطريق بمهاجمة الأديرة ونهب وحرق القرى غير المحصنة،

وعانت القسطنطينية من نفس الأعتداءات الصليبية كالتى عانت منها أثناء الحملة الأولى، بالرغم من القسم بعدم الإضرار بأراضى الأمبراطورية الذى أقسمه لويس وكونراد مقابل تموين جيشيهما ومساعدات بيزنطية، ليقوم السكان البلغار واليونانيون بالأنتقام من الفرسان الألمان المتهورين المشاغبيين، بقتل السكارى حتى الغيبوبة منهم، لتصدم مشاهد جثث فرسان ألمانيا جنود الجيش الفرنسى الزاحفين بعدهم، لتصل الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية المغلّقة الأبواب فى اكتوبر 1147م، وحاول الأمبراطور البيزنطى مانويل كومنين Manuel Komnenos(537-575هـ/1143-1180هـ)[29] أقتفاء أثر جده وإجبار قادة الحملة الثانية على قسم يمين الولاء له، وهو ما رفضه الملكان لتعقد بيزنطة صلح مع سلاجقة الروم، مما أطلق يد السلطان مسعود بن قلج أرسلان سلطان قونية فى قتال ومقاومة قوات الحملة، فى الوقت الذى تعالت صيحات بين جنبات المعسكر الفرنسى تنادى بالإتصال بأسطول روجر الصقلى والتعاون معه فى الإستيلاء على القسطنطينية، التى أدار ثرائها رؤوسهم،

لتتغلب المصالح السياسية على الحركة الصليبية، فروجر الصقلى تحالف مع الفاطميين ضد بيزنطة، بينما بيزنطة التى عانت من الهجمات القرصانية الصقلية والهجمات اللصوصية الألمانية والفرنسية تتحالف مع سلطان قونية السلجوقى، لتُهزم الحملة الثانية قبل عبورها البسفور، بسبب الطعنات القاتلة التى سددها روجر لها فى الظهر، وقبل ذلك عربدة جنودها المشاكسين فى مدن حلفاءهم البيزنطيين، والحلفاء

[29] هو الأبن الرابع للأمبراطور حنا كومنين، ولد 517هـ/1123م، وتقلد العرش بوصية من أبيه 538هـ/1143م حتى وفاته 576هـ/1180م

البيزنطيون المخلصون فى حلفهم بقدر إخلاص اللاتين، بحثوا عن من ينجدهم من سلوك حلفاءهم الدموى، الذين لم يستطعوا التفرقة بين دماء البيزنطيين والمسلمين،

ليبدء الجيش الألمانى الغير منضبط الزحف بدون نظام ولا أحتراس، مسرعاً الخطى خلف أمبراطوره[30] الممتلئ ثقة بقدرة جيشه على هزيمة المسلمين بمفرده بدون مساعدة الجيش الفرنسى، والطامع فى الفوز بمجد الإنتصار وحده، ليصل لنيقية الخالية من السكان ويغادرها فى أكتوبر1147م، ليتخلى عنهم الدليل البيزنطى ـ بعد أن نصح الجيش الألمانى بعدم حمل طعام لوفرته بمدينة قونية القريبة ـ ليتخبط الجيش الألمانى فى أسيا الصغرى على غير هدى، يدير أنظاره فى الأرض الجرداء التى وجد نفسه فيها يبحث عن ما يسكت به صرخات الجوع لجنوده ولدوابهم، فينقض عليهم السلطان مسعود السلجوقى بجيشه عند مدينة آسكى شهر فى 26 أكتوبر1147م وأخذت سيوف السلاجقة الألمان من كل جانب ليطلق كونراد ساقيه للريح بمنتهى الصعوبة ليصل لمدينة نيقية بفلول جيشه وهو فى حالة يرثى لها ورأسه تقطر دماً من جرح أصيب به، ومعه جندى فقط من كل عشرة جنود كانوا تحت قيادته، بينما ذهب البقية طعمة لسيوف السلاجقة، بعد أن أستولى السلاجقة على كميات لا تحصى من الغنائم، ويلحق به لويس السابع وجيش فرنسا بنيقية بعد أن سرت إشاعة أنتصار الألمان على جيوش السلاجقة ومصدر هذه الإشاعة هو الأمبراطور مانويل والذى هدف من وراءها حث الفرنسيين على عبور البسفور وإخلاء عاصمته، ويجتمع الجيش الفرنسى وبقايا الجيش الألمانى، ليختار الجيشان الطريق الساحلى ليبتعدوا عن السيوف السلجوقية ويحتموا بالقلاع البيزنطية، ويذوق الجيش الزاحف الأمرين من الجوع وهجمات السلاجقة الذين تنهال عليهم المساعدات السرية البيزنطية، ليعود كونراد للقسطنطينية يجر أذيال الخيبة والعار، ليبقى فى القسطنطينية لشهر مارس 1148م، ليسافر بحراً للشام على متن أسطول بيزنطى ،

فبالرغم من أن شمال وغرب الشام كان ممهداً لجنود الحملة لوجود الكيانات الصليبية، إلا إن جيوش السلاجقة بأسيا الصغرى لعبوا دور الأسفنجة التى امتصت هذه الجيوش الجرارة، ولم يعبر من خلالها إلا قطرات ،

[30] كانت هناك عداء بين بيزنطة والألمان، حيث الأمبراطورية الرومانية الغربية سقطت تحت سنابك القبائل الجرمانية، بينما يرى الأمبراطور البيزنطى أنه أمبراطور الدولة الرومانية بشقيها الشرقى والغربى ، الأمر الذى يحيل الأمبراطور فريدريك إلى مغتصب،

ويصل لويس السابع لأنطاكيا هو وزوجته أليانور داكيتين[31] ـ التى أصطحبها لشكه فى سلوكها ـ مارس 1148م بأسطول صغير قام بإستئجاره وحشوه بأسرته وفرسانه المقربين وترك باقى مشاته التعساء لمصيرهم، ليتحولوا إلى طعام لسيوف السلاجقة، بينما أليانور تتسلى أثناء الطريق بكافة المتع بين ضباط زوجها الشبان بألبستهم الفاخرة،

ويقابل عم زوجته ريموند أمير أنطاكيا[32]، ويتسابق الجميع لأستغلال الجيش الفرنسى لتحقيق مصالحه، الذى بالرغم من أفتقاره لمشاته الذين تركهم على جانبى طريق زحفه إلا أنه حضر بكم هائل من الفرسان، فأمير أنطاكيا وجوسلين أمير الرها السابق حاولا حث الجيش الفرنسى على ضرب الدولة النورية فى مقتل، مدينة حلب قلب دولة نور الدين، وتحرير أراضى أنطاكيا والرها التى أستولى عليها زنكى ونور الدين محمود قبل ذلك، وهو ما يعتبر الهدف الرئيسى لخروج الحملة من أوروبا، التى ما دعى لها إلا لإعادة الرها لحظيرة الصليبيين والقضاء على الدولة الزنكية تماماً ،

وفى أثناء ذلك وصلت سفارة من بيت المقدس برئاسة فولشر بطرق بيت المقدس فى إبريل 1148م تستعجل قدوم الحملة للقيام بهجوم على داخلية الشام، ليجد لويس نفسه فى بحر من الخلافات لتتكفل العلاقة الأثمة بين زوجته أليانور وعمها ريموند أمير أنطاكيا والتى بدأت بالغزل وأنتهت بالفراش، بحسم رأيه، "فقد عزم ريموند على أن يحرم لويس من زوجته أما قسراً أو بمؤامرة يدبرها فى الخفاء، وأستجابت الملكة لريموند لما هى عليه من الرعونة والطيش، ولم تخلص لزوجها"[33]

ويتوجه لويس إلى بيت المقدس مصطحباً زوجته اللعوب رغماً عن أرادتها بالرغم من إعلان عزمها الحصول على الطلاق، وقد يكون الخوف من قوة جيش نور الدين سبب إضافى لأختيار لويس العمل فى محيط بيت المقدس، لتبتعد الحملة عن هدفها الأساسى ويتجنب نور الدين الخطر القادم من أوروبا ،

ويصل لويس بيت المقدس فى منتصف أبريل 1148م ليجد أن كونراد قد سبقه هناك، ليعقد إجتماع مع ملك بيت المقدس بلدوين الثالث (1143-1163م) ووالدته الوصيه عليه ميلزندا وبارونات المملكة، وهنا يتخذ أمراء بيت المقدس موقف فى منتهى الغرابة فبدلاً من أن تتخذ مملكة بيت المقدس موقف فى صالح الحركة الصليبية ككل

31 تم الطلاق بينهما بعد الحملة عام 1152م وتزوجت أليانور من هنرى الثانى ملك إنجلترا وتلد منه ريتشارد قلب الأسد1157م

32 كانت أليانور أبنة وليم كونت بواتو شقيق ريموند

33 وليم الصورى ج3 ص290

وتوجه الحملة الثانية لمقاتلة نور الدين محمود الخطر الأكبر على الوجود الصليبيى، إذا بها تحاول إستغلال الجيش الفرنسى فى مهاجمة حليفها الوحيد معين الدين أنر فى دمشق والذى يضارع أكثر الصليبيين تطرفاً كرهاً لنور الدين، بعد أن أسالت أراضى دمشق الخصبة لعاب بارونات بيت المقدس، مما كان يعنى لمملكة بيت المقدس فقدان الحليف الوحيد لهم بين القوى الإسلامية، فى الوقت الذى كان العقل والمنطق يحتم مهاجمة السلطان العادل نور الدين، الذى ملك عليه طرد الفرنج من الشام كل جوانحه، مع الإبقاء على التحالف مع دمشق حتى التخلص من نور الدين محمود، ولكن قوة نور الدين وتجارب الفرنج معه أقنعتهم بإختيار الوجهة التى رأوها أسهل، فالخوف من نور الدين لعب دور أكثر أهمية من الرهاء

وإن كان منطق القوة يجعل الهجوم على دمشق فكرةٌ خلابة، فإجتماع ملكى ألمانيا وفرنسا مع زعماء مملكة بيت المقدس بينما فى فناء قلعة عكا آلاف الفرسان المدرعين سيجعل التفكير فى الإستيلاء على دمشق أمراً ميسوراً، ثم لماذا يحافظ الصليبيون على عهد مع من تحالف معهم ضد بنى جنسه، إذا لم يحافظ هو على روابط الدين والجنس والوطن، هل سيحافظوا هم على معاهدتهم معه، ويضيعون مدينة مثل دمشق من بين أيديهم، ثم الإستيلاء على كبرى مدن الشام سيوفر نصر ومجد للويس وكونراد وبأقل التكاليف ،

ليتم الإتفاق على مهاجمة دمشق فى إجتماع عُقد بعكا، ويقدم الفرنج هدية سخية للمقاومة العربية، ويبدء الزحف فى 25 مايو 1148م لتجتمع الجيوش الصليبية عند بحيرة طبرية فى أوائل يوليو 1148م ويزحف الصليبيون بعد أن أحتل جيش بيت المقدس المقدمة ويليه الجيش الفرنسى فى القلب بينما كونراد والجيش الألمانى يحمى المؤخرة، لتبدء بمهاجمة غوطة دمشق فى 24 يوليو 1148م، بعد أن تبايعوا دور دمشق وحماماتها وقياسرها فيما بينهم([34])، ليشترك جميع أهل دمشق فى الدفاع عن مدينتهم، ويستفيق معين الدين أنر من أحلام صداقته للفرنج، لدرجة عدم إهتمامه بزيادة درجات حصانة دمشق عقب ورود أنباء قدوم قوات الحملة للشام، لإعتقاده مجيئهم للحج فقط وإستبعاده نقض الفرنج لمعاهداتهم معه ،

ويقود أمبراطور ألمانيا الباحث عن ما يحفظ به ماء وجهه الهجوم فى اليوم الأول، ويصل هجوم كونراد الثالث بقواته حتى الميدان الأخضر بالبساتين القريبة من أسوار المدينة، ويستشهد العديد من علماء وأهالى دمشق اثناء أول يوم قتال، ويقضى

[34] الإعتبار ص115

الصليبيون ليلتهم بجوار باب الجابية فى أحضان بساتين دمشق، ونهرها الذى يمدهم بإحتياجاتهم من المياه بسخاء، وتحنو بساتينها عليهم بفواكهها النضرة،

وحاول الصليبيون أستغلال النجاح الذى لاقوه أول يوم فى شن هجوم مباغت ثانى أيام القتال لُيبلى معين الدين أنر وقواته بلاءاً حسناً ويصدوا الهجوم الصليبى، ليُجبر الصليبيين على التراجع بعد أصابتهم بخسائر كبيرة، وتنهمر على رؤوس الصليبيين أمطار من سهام فرسان دمشق، لتصاب الجيوش الصليبية بخسائر فادحة، ليتحول الصليبيون بعيداً عن سهام فرسان دمشق، ويخرجوا من بساتينها، ويعيدوا إنتشار قواتهم بعد أن أشار عليهم بارونات المملكة بضرورة إنسحابهم خارج بساتين دمشق وتمركزهم فى الجانب الأخر من المدينة القاحل، بعيداً عن هذه البساتين الكثيفة والأحراش التى تأتيهم بسهام لا يرون من قذفها، وسط تأييد من مقدمى الداوية والإسبتارية، ليجد الفرنج أنفسهم بعيداً عن النهر والبساتين السخية، الأمر الذى أوقعهم فى مشاكل التموين القاتلة، وأبعدهم عن أسوار المدينة، ذلك بعد الرشى التى وعد بها أنر كبار بارونات وفرسان الداوية والإسبتارية فى حالة فك الحصار على المدينة،

ويستنجد معين الدين أنر بنور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازى، ويزحف الأخوان بجيشيهما، وسيف الدين يرسل رسالة لأنر يقول فيها "حضرت ومعى كل من يحمل السلاح ببلادى"[35]، وما أن يقترب الجيش النورى الغازى حتى يجد الصليبيون أنفسهم فى موقف بالغ الصعوبة ليعقدوا صلح مع أنر، بعد أن راسلهم معين الدين أنر مهدداً أياهم بقوله "إن ملك الشرق قد حضر فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ تندمون"[36]، لينسحبوا من أمام دمشق على أن يسلمهم معين الدين أنر بانياس، بعد أن أتهم بعض المؤرخين الصليبيين أمراء بيت المقدس بتلقى رشاوى من أنر لإفشال الحملة على دمشق، وقد أدى الصراع على مستقبل الحكم فى دمشق قبل سقوطها إلى تقاعس أمراء مملكة بيت المقدس وملكهم عن القتال، فبينما أراد بارونات بيت المقدس فرض سيطرة مملكتهم على دمشق، وتعيين جوى بريسبار لورد بيروت لوردا لدمشق كتابع إقطاعى لمملكة بيت المقدس، رأى لويس وكونراد أن تقام إمارة جديدة بها يتولى رياستها ثيرى أوف فلاندرز القادم من الغرب، مما يحرم بارونات وكونتات المملكة من ما كانوا يحلموا به، وهذا الوتر الذى لعب عليه معين الدين أنر عندما كاتب فرنج بيت المقدس بقوله "أن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يبقون عليكم

35 مفرج الكروب ج1 ص113
36 الكامل ج9ص159

ما بأيديكم من البلاد"[37] لإنتشار رائحة الكراهية المتبادلة بين فرنج الشام والقادمون من أوروبا، حتى تصل هذه الرائحة لأنوف الساسة المسلمين إينذاك، فى الوقت الذى سعى ريموند دى بواتيه إلى هزيمة لويس إنتقاماً منه على عدم مساعدة إمارته بقتال نور الدين محمود، يضاف لذلك الأموال الطائلة التى دفعها الداهية العجوز معين الدين أنر لأمراء مملكة بيت المقدس، والتى ظهر لهم بعد إنسحابهم إنها قطع ذهبية مزيفة،

وما أن يصل الجيش لبيت المقدس حتى بادر كونراد بالعودة لألمانيا فى 8 سبتمبر 1148م ليبقى لويس ستة أشهر أخرى ويغادر بيت المقدس فى 1149م عائداً لفرنسا، وقلبه يغلى مقتاً لبيزنطة التى رأى فيها السبب الأكبر لمصير الحملة الكئيب، ليحاول عقد تحالف بين فرنسا وصقلية لغزو القسطنطينية بمباركة البابوية فى روما، ولكن تحول الظروف بين هذا التحالف،

لم تحقق الحملة الصليبية الثانية هدفاً واحداً من اهدافها بسبب التضارب بين زعماء الحملة، وسيطرة الأنانية وبحث كل فريق عن مصالحه الخاصة بِغض النظر عن المصالح العامة للحركة الصليبية ككل، والأهم هو تبدل حال المشرق الإسلامى خلال الحملة الصليبية الثانية لظهور قيادات مؤمنة بفكرة المقاومة وقادرة على التعاون للتغلب على الأخطار المشتركة، فالحملة الصليبية الثانية كانت أفضل تنظيمياً وذات أمكانيات عسكرية تفوق الحملة الأولى، زد على ذلك وجود أمارات لاتينية بالشرق تتيح لها قواعد إرتكاز لعملياتها العسكرية، ومع هذا لم تحقق أى نجاح فى الوقت الذى صادفت الحملة الأولى نجاحات مبهرة وغير متوقعة، الأمر الذى يظهر أن الفرق بين الحملتين هو القوى الإسلامية، فالحملة الأولى واجهت جبهة مهلهلة، وزعماء همهم الأول مصالحهم الشخصية، علاوة على تمتعهم بضيق أفق لامتناهى، فى الوقت الذى واجهت فيه الحملة الثانية الأسرة الزنكية المتمثلة فى نور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازى، زد على ذلك معين الدين أنر الذى ثاب إلى رشده وأظهر مقدرة قتالية عالية وظهر من شجاعته ما لم يشاهد من غيره[38]، ويضاف لهؤلاء البسالة والتضحية الكبيرة التى تمتع بها أهالى دمشق من المجاهدين والفقهاء والزهاد[39] ومسارعتهم إلى القتال والشهادة،

ويحاول وليم الصورى قصر سبب فشل الحملة على رنات الذهب فى أيدى بارونات المملكة، فى الوقت الذى رأينا المقاومة الشرسة التى أدارها جيش وأهالى دمشق،

37 التاريخ الباهر ص89
38 الروضتين ج1 ص525
39 الإعتبار ص95

والذين أستخدموا الأحراج والأجامات الكثيفة التى تكتنف دمشق وغوطتها، والتى كانت تعوق مناورات وتحركات فرسان الصليبيين، الذين يحتاجون أراضى سهلة للقيام بهجماتهم المميتة، وكذلك التعاون الفعال بين الأخوين سيف الدين ونور الدين ومسارعتهما بجيشيهما لنجدة دمشق، وشجاعة معين الدين أنر وحنكته السياسية، زد على ذلك التنافس والأنانية التى ضرب الصليبيين، والكراهية المتزايدة بإستمرار بين الصليبيين البلديين الجشعين والصليبيين الجدد الإنتهازيين، وتنازعهم الكعكة قبل نضجها، كل هذا أوصل الحملة إلى نهايتها المفجعة،

وكل ما حققته الحملة الثانية هو زيادة التقارب بين دمشق وحلب والموصل، وزيادة التباعد بين بيت المقدس ودمشق، وخسائر صليبية فادحة، وفقدان الصليبيين لحليفهم الوحيد المتمثل فى أسرة طغتكين صاحبة دمشق أخر حلقة فى سلسلة المتحالفين من المسلمين مع الفرنج، وكذلك التأكيد لنور الدين محمود على حتمية ضم دمشق لدولته، التى رأى فيه سكانها الأمل الوحيد لبقاء مدينتهم خارج نطاق السيطرة الصليبية، كما أدى الفشل الصليبى إلى زيادة الخلافات بين الصليبيين بعضهم البعض وبين الصليبيين والبيزنطيين، وبين الصليبيين الوافدين الجدد والصليبيين البلديين،

كان فشل الحملة الثانية نقطة فارقة فى تاريخ الحملات الصليبية أسقطت أسطورة الفارس الصليبي الذى لا يقهر، ونزعت عنه الهيبة، بعد فشل الجيش الصليبى الإستمرار فى القتال أكثر من أربعة أيام، وبداية إنطلاق حركة تحرير الشرق من الوجود الصليبى، وإكتمال المرحلة الأولى لحركة بعث القوة الإسلامية، والتى ستعقبها المرحلة الثانية والتى ستهدد فيها قوات نور الدين محمود الوجود الفرنجى فى الشام، وتطهر غرب الفرات تماماً من الوجود الصليبي،

لتعيد فشل الحملة الثانية الطمأنينة النفسية للمسلمين، فى الوقت الذى غدت الهيبة العسكرية للفرسان الصليبيين باهتة أكثر، ويندب الصليبيون حظهم فى القدس، ويتباعت الأوروبيون عنهم، لتتسلل المبادءة من أيديهم إلى إيدى نور الدين،

ويمكن إعتبار الحملة الثانية من الأسباب الغير مباشرة لهزيمة الصليبيين فى معركة حطين، فعند سفر أفراد الحملة تخلف عنها عدد ليس بالقليل من أفرادها ممن أستهواهم سحر الشرق وحضارته والحياة النضرة فيه بالمقارنة بأوروبا، ومن الفرسان الذين بقوا فى الشرق، فارسان سيكون لهما دور كبير فى هزيمة الصليبيين بمعركة حطين، أولهما رينو دى شاتيون (أرناط) الذى أرتكب الموبقات كلها، والثانى مقدم الداوية خلال معركة حطين جيرارد دى ريدفورت الفارس الفلمنكى (هولاندا)، هذا بالإضافة

إلى العديد من فرسان الحملة الذين أستهواهم الشرق ليؤلفوا مجموعات من الصليبيين الجدد الذين بعداءهم مع الصليبيين البلديين سيشقون المجتمع الصليبى فى الشام، الأمر الذى سيساهم فى إضعاف الصليبيين وسيقودهم لهزيمة حطين ،

بمجرد إنسحاب قوات الحملة الصليبية راسل ريموند الثانى كونت طرابلس نور الدين محمود مستنجداً به ضد برتراند المطالب بإمارة طرابلس وحفيد ريموند كونت تولوز مؤسسها، ويشير عليه بقصد حصن العزيمة[40]، فقام نور الدين محمود ومعين الدين أنر بعد أن أمدهما سيف الدين غازى ببعض قواته بقيادة عز الدين أبى بكر الدبيسى بحصار برتراند ووالدته بقلعة العزيمة، وبعد حصار شديد يقتحم المسلمون القلعة ويتم أسر برتراند وأمه ،

نور الدين الذى لا يهدء حاول إستغلال حالة الفشل والتباعد الصليبى فى أعقاب الحملة الثانية فقام بمهاجمة الأراضى الباقية شرق نهر العاصى التابعة لأمارة أنطاكيا فقام بمحاصرة قلعة أنب الواقعة بالقرب من حلب، وما أن علم ريموند دى بواتيه أمير أنطاكيا بحصار نور الدين لقلعة أنب حتى بادر بقواته لطرده وحماية قلعته، فتقابل الجيشان فى 29 ونيو 1149م لتنتهى الواقعة عن كارثة لجيش أنطاكيا الصليبى ومقتل جميع أفراد الجيش الصليبى ومن بين القتلى ريموند نفسه ـ الذى قُتل على يد أبو الحارث أسد الدين شيركوه ـ وأمير كيسوم وزعيم الباطنية على بن وفا الذين كانوا يساعدون الصليبيين، يعتبر قتل ريموند من عوامل قلب ميزان القوى فى شمال الشام، "لأن ريموند كان من عتاة الفرنج وكبار زعماءهم"[41] وكان "من أبطال الأفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل والتناهى فى الشر"[42]، بينما "عم الحزن الناس فى كل مكان (بين الصليبيين) على مقتل ريموند ورينالد"[43]، وأستغل نور الدين هذا النصر وإختفاء معظم قوات جيش أنطاكيا من الساحة فقام بمهاجمة مدينة أنطاكيا نفسها وميناء السويدية، ثم أدرك نور الدين أن الإستيلاء على معاقل أنطاكيا القريبة من حلب أجدى فقام بالإستيلاء على باقى أملاك أنطاكيا شرق نهر العاصى، ثم ينجح نور الدين فى اسر جوسلين الثانى أمير الرها السابق ليقبع فى سجون نور الدين ما يزيد عن تسعة أعوام ،

40 التاريخ الباهر ص90
41 الروضتين ج1 ص58
42 ذيل تاريخ دمشق ص305
43 وليم الصورى ج2ص 791

ليختفى زعماء الفرنج بشمال الشام، ليتولى بلدوين الثالث الوصاية على أنطاكيا بينما نور الدين يقتضم بقايا حصون الرها، لينضم ريموند الثانى كونت طرابلس لأمير أنطاكيا، فأثناء عودة ريموند كونت طرابلس بعد توديع زوجته الذاهبة للقدس، وعند عبوره بوابة طرابلس هاجمه بعض الحشاشين، ليلقى مصرعه طعناً بالخناجر هو وأثنين من حراسه، بينما الملك بلدوين فى المدينة يقامر بالنرد، وتبحث طرابلس عن أمير،

فى هذه الأثناء بلغ بلدوين الثالث الثانية والعشرين من عمره 546هـ/1152م مما يعنى حقه فى ممارسة مهامه بدون وصاية أمه مليزندا، وهو ما رفضته الملكة الأم، فقد أستمرأت الحكم فلم تستطع أن تفطم عنه، وهذا ما دفعها لأقتراح تقسيم المملكة بينها وبين أبنها، على أن يخصص لبلدوين المدن الساحلية، بينما تستأثر هى بالقدس ونابلس، ليرفض بلدوين هذا الأقتراح لتقع حرب أهلية بين صليبى بيت المقدس تنتهى بأنتصار الملك بلدوين الثالث وعقد صلح بينه وبين أمه، لترفع يدها عن شئون الحكم تماماً وتقبع فى قلعة نابلس تلعق جراح فقد السلطة .

وكما رأينا أن مقتل ريموند دى بواتيه أمير أنطاكيا ترك فراغ فى حكم الأمارة، فى الوقت الذى مازالت ذكرى سقوط الرها ماثلة فى الأذهان، مما جعل بلدوين الثالث يبحث عن زوج لأرملة ريموند الأميرة كونستانس، وقد حاول الأمبراطور البيزنطى إستغلال الفرصة بتزويج الأرملة من أمير بيزنطى لفرض السيطرة البيزنطية على أنطاكيا التى تحلم بها بيزنطة، لتلقى هذه المحاولة معارضة شديدة من أمراء أنطاكيا وبلدوين، فعرض بلدوين ثلاثة أسماء من كبار النبلاء على كونستانس ـ إيفز نسل كونت سواسون، ووالتر فولكنبرغ، ورالف ميرل من كبار نبلاء طرابلس ـ لتختار من بينهم زوجاً لها، لترفضهم الأرملة العابثه المتمسكة بحريتها التى تستغلها فى حياة المجون ،

لتلتقط عينى أميرة أنطاكيا الخبيرة بالرجال فارس فرنسى شاب فقير، كان من ضمن قوات الحملة الصليبية الثانية وكان فى خدمة لويس السابع، وسوف يكتب لهذا الفارس أن يكون من أهم أسباب نهاية مملكة بيت المقدس، هذا الفارس هو رينو دى شاتيون المعروف بأرناط بين المؤرخين العرب، وهو رجل وقح متغطرس فظ، وهو الأبن الأصغر المفلس المحروم من الميراث ـ تبعاً للعرف الإقطاعى الأوروبى ـ لجيوفرى كونت جين ولورد شاتيون وسير لوان، حتى والده كان أميراً من قاع طبقة نبلاء أوروبا، ولم يرجع رينو للأفلاس المنتظره فى مسقط رأسه، وفضل الإنتظار فى

الرفاهية والترف الشرقى، وألتحق بخدمة بلدوين كفارس بالأجر، ممنياً نفسه بزيجة تنتشله من هوة الفقر، لترتمى كونستانس بين أحضانه وتدفعه للسفر لطلب الأرتباط بها من بلدوين، ليُصدم بلدوين من فكرة زواج بنت خالته من فارس معدم من حثالة الفرسان[44]،

ويتم الزواج ـ بالرغم من معارضة الملك ـ فى يناير 1153م ليبدء أرناط عهده كأمير أنطاكيا بعقاب بطرق أنطاكيا بسبب تحريضه لكونستانس على عدم الزواج منه، وكذلك ثراء البطرق الذى أسال لعاب اللص المفلس، ووصل الحال بأرناط إلى ضرب بطرق أنطاكيا وجرح رأسه وتلطيخ الأسقف فى عسل وإلقائه عاريا فى شمس الظهيرة الحارقة تاركاً إياه فريسة لألاف الحشرات المتلهفة على العسل الملطخ به جسده، متناسيا قداسة منصب البطرق، ليسارع البطرق بغمر أرناط بفيضان من الذهب حتى لا يقضى يوماً أخر فريسة للحشرات، بينما نشأت صداقة إجرامية بين أرناط وفرسان الداوية، قوى أواصرها عنصريتهم وكراهيتهم لكل ما هو غير كاثوليكى

بل قام أرناط بمهاجمة قبرص التابعة لبيزنطة إينذاك، وأسر حاكم قبرص البيزنطى، ورجال الدين القبارصة والتمثيل بهم بجدع أنوفهم وقطع أذانهم وألسنتهم ولم يشفع لهم أنهم رجال دين مسيحيين، والجنود الفرنج ينهبون كل ما فى طريقهم، غير مفرقين بين كنائس وأديرة وقصور وحوانيت، بينما جثث الرجال القبارصة مفترشة الثرى كانت نساءهم تغتصب، وتم ذبح الجميع ذبح الشياه لمدة ثلاثة أسابيع، وبمجرد وصول أنباء أسطول إنقاذ بيزنطى، يسارع أرناط فى العودة لأنطاكيا بسفنه المكتظة بالأسلاب والأسرى الأثرياء المنتظر دفع فدية ضخمة لهم ،

وما أن يزحف الأمبراطور البيزنطى مانويل للأنتقام من أرناط، حتى قام المحارب اللاتينى برشوة بعض كبار حاشية مانويل لحث الأمبراطور على منحه عفوه، ثم يحث أرناط الخُطى حتى معسكر الأمبراطور بمدينة المصيصة، وليقتحم أرناط على رأس أمراءه بلاط مانويل، حافي القدمين، يرتدى قميص قصير من الصوف، يربط فى عنقه حبلاً من الحبال التى يُربط بها الإغنام، وأمراءه على شاكلته بنفس هيئته، وينطرح أرضاً منبطحاً على بطنه تحت أقدام الأمبراطور، الذى لم يكلف نفسه عناء النظر لهذا الوضيع، بل أستمر فى إكمال حديثه لبضع دقائق قبل أن يتعطف بالنظر لأرناط الذليل، ويقدم أرناط سيفه وهو يمسكه من طرفه الحاد لمانويل، وهو يبكى

44 الحروب الصليبية ج3 ص359

ومعفراً رأسه بالتراب تحت قدم الأمبراطور طالباً صفحه وسط ضحكات الحاضرين، فأرناط أظهر قدراً من العبودية توازى غطرسته،

ليمنحه الأمبراطور عفوه مقابل شروط مهينه تتضمن، قيام أرناط بتسليم أنطاكيا للأمبراطور حينما يطلب، تعهد أرناط بتقديم وحدات عسكرية من أنطاكيا للقتال بجانب قوات الأمبراطورية، تعيين بطريرك أرثوذكسى بدلاً من البطريرك الكاثوليكى الحالى، وإن ترك مانويل أرناط على رأس أمارة أنطاكيا لتأكده من أهمية وجوده لما يسببه من إنشقاقات فى الصف الصليبي بسبب رعونته وحمقه، حتى أصبح أرناط مصدراً غير محتملاً لتكدير الجو،

وقد كان وجود نور الدين محمود مسيطراً على حلب حائط صد قوى أمام أى توسع صليبى فى إتجاة الشمال، مما جعل بلدوين يفكر فى التوسع جنوباً على حساب مصر التى بلغت تحت حكم الفاطميين درجة كبيرة من الضعف، فبدء بلدوين بعسقلان، أخر مدن الشام تحت الحكم المصرى، فيقوم بلدوين بتشيد قلعة غزة وتسليمها للداوية لحراستها ومضايقة عسقلان، وفى يناير 1153م يحاصر الصليبيون عسقلان ويبدى الجيش المصرى مقاومة بطولية تطيل فترة الحصار حتى تسلم عسقلان 19 أغسطس 1153م بشرط خروج أهالى عسقلان إلى مصر ليتقدم الصليبيون خطوة فى إتجاه مص، ثم زحف بقواته لإحتلال القاهرة قبل أن يصده الوزير المصرى الصالح طلائع بن رزيك[45]،

وأن أستطاع بلدوين إحتلال عسقلان، فإن نور الدين تقدم خطوات كبيرة فى سبيل تحقيق الوحدة المنشودة القادرة على تطهير الشام من الوجود الصليبى بضمه دمشق لدولته، فبالرغم من المحاولات المتعددة التى قام بها عماد الدين زنكى للإستيلاء على دمشق، إلا أن المدينة بقيادتها من أسرة طغتكين ومملوكه معين الدين أنر أستطاعت مقاومة وإفشال كل هذه المحاولات، بسياسة المهادنة والإستعانة بالفرنج، أما الأن فقد كانت دمشق تحت حكم مجير الدين أبق بعد موت الوصى عليه معين الدين انر، وقد كان أبق قاسى وقصير النظر، فقام بالتحالف مع الصليبيين علاوة على قسوته مع أهالى دمشق مما أدى إلى نفور قلوب رعيته منه، فقد قامت مفاوضات بين مجير الدين ومملكة بيت المقدس أسفرت عن تقسيم الناتج الزراعى لمنطقة السواد التابعة لدمشق، على أن يكون الثلث للصليبيين والثلث الثانى لمجير الدين والثلث الباقى

[45] كنز الدرر وجامع الغرر، إبن أيبك الدوادارى ج7 ص15

للمزارعين[46]، بالإضافة على تعهده بتسليمه حصنى المنيطرة وعكار الهامين للصليبيين، وفرض إتاوة باهظة على حصنى مصياث والطوفان التابعين للحشاشين، علاوة على تعهده بدفع ثلث الإنتاج الزراعى لمنطقة بعلبك للصليبيين عقب هجوم ملك بيت المقدس على المنطقة 503هـ/1111م[47]

وهذا ما أستغله نور الدين فقام بمكاتبة أهالى دمشق عن طريق حاكم بعلبك الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبى، حتى تأكد من مساعدة أهالى دمشق ضد أبق فقام بالهجوم على دمشق التى سارع الدماشقة بفتح أبواب مدينتهم لأستقبال نور الدين محمود بدون قتال أو سفك دماء، بعد أن أُقطع مجير الدين أبق حمص، ولن تندم دمشق على إلقاء مقدراتها بين يدى نور الدين، فعلى يديه سينتهى عهد التحالف مع الفرنج، وستعيش المدينة أزهى عصورها، مما يعنى تكوين جبهة قوية مكونة من الشام وشمال العراق، لا ينقصها إلا مصر لتشكيل جيش يستطيع مواجهة الصليبيين ومن وراءهم أوروبا، ليميل ميزان القوى بشكل واضح لصالح نور الدين، فبالرغم من أن مساحات الكيانات الصليبية أكبر وأغنى فى مواردها من أراضى دولة نور الدين، بيد أن دولة نور الدين تتمتع بميزة الوحدة تحت قيادة موحدة، بعكس الكيانات الصليبية التى كانت تعانى من تناحر زعماءها المتعجرفين ،

وقام نور الدين بمهاجمة مدينة بانياس، التى صمدت بقيادة صاحبها كونستابل المملكة همفرى بن تورون، لتصل قوات النجدة بقيادة الملك بلدوين، بينما ينسحب نور الدين إنسحاباً تكتيكياً ليهز الغرور بلدوين ويأخذ فى العودة لعاصمته، بينما نور الدين يقوم بمناورة رائعة بقواته حتى يصل مخاضة بنهر الأردن تعرف بمخاضة الأحزان، ليقوم بنصب كمين عند هذه المخاضة التى لا يوجد دونها طريق لجيش بيت المقدس، وهناك ألتقى بجيش بيت المقدس فى مايو 1157م بقيادة بلدوين الذى فر بشق الأنفس بعد الهزيمة الساحقة التى لحقت بجيش بيت المقدس الذى ذهب بين قتيل وأسير، ويختفى بلدوين الثالث خلف أسوار مدينة صفد وتنقطع أخباره، "وقيل أنه فى الهاربين، وقيل أنه فى جملة القتلى، ولم يعرف له عن خبر"[48] ووثب المسلمون كالليوث على بانياس التى ألقت بأمورها فى أيدهم،

46 ذيل تاريخ دمشق ص164
47 ذيل تاريخ دمشق ص171
48 ذيل تاريخ دمشق ص343

ويعرض الأسرى بشوارع دمشق بملابسهم وتجهيزاتهم العسكرية "والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال فكل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية، والرجالة والسرجندية كل ثلاثة أو أربعة أو أكثر أو أقل فى حبل[49]،

وتقترب هذه المعركة من حيث نتائجها من نتائج معركة حطين، حيث أختفى جيش بيت المقدس الذى تم أسر معظم قواته وقواده، فلماذا لم يستغل نور الدين هذه المعركة للقضاء على التواجد اللاتينى بالشرق كما فعل تلميذه صلاح الدين ،

الفرق هنا هو سلامة الملك، فبينما تم أسر ملك بيت المقدس جى فى معركة حطين بما يعنى إختفاء رأس المملكة، نجد الملك بلدوين أستطاع الفرار والوصول لعاصمته التى ستستعيد أنفاسها بوصوله، وكذلك سلامة قوات طرابلس وأنطاكيا التى لم تشترك فى المعركة، فى الوقت الذى تم القضاء على قوات طرابلس بجانب قوات بيت المقدس فى معركة حطين، كما أن الجبهة الإسلامية خلال معركة حطين كانت أقوى وأقدر ـ لإنضمام مصر إليها ـ على مواجهة أوروبا التى ستحاول درء أثار الهزيمة وسقوط المملكة اللاتينية، بينما كانت هذه الجبهة لم تكتمل حلقاتها بعد خلال فترة حكم نور الدين محمود، التى أكملها صلاح الدين الأيوبى ،

وأتسمت المعارك فى هذه الأثناء بما يمكن الأطلاق عليه حرب قلاع وإغارات حيث كان الأغارة تهدف إلى تدمير النشاط الأقتصادى للحصن بتدمير الأراضى الزراعية التابعه له، كما فعل أسد الدين شيركوه ضد صيدا مايو 1158م، ووقعت معركة بين نور الدين والصليبيين، الذين هاجموا نور الدين على غرة يوليو 1158م أثناء راحته بمنطقة تسمى البقيعة بجوار حصن الأكراد، ليفاجئ نور الدين بقوات اليزك الخاصة به[50] تعدو لمعسكره وفى أثرها مباشرة قوات الصليبيين، ليخرج نور الدين من ظهر خيمته، ويسارع بركوب فرس النوبة[51] ولكن تصادف أن الفرس كانت رجله مقيده فنزل فارس كردى وقام بقطع القيد من قدم فرس نور الدين فلحق الفرسان الصليبيون بهذا الكردى فقتلوه، فحفظ نور الدين أولاد هذا الكردى ورباهم مع أولاده[52]، ورفض نور الدين الإنسحاب لحلب وأقام معسكره بقرب موقع المعركة وقال "والله لو

49 ذيل تاريخ دمشق ص341
50 قوات فرسان خفيفة تستخدم للأستطلاع
51 فرس يكون جاهز قرب السلطان دائماً للطوارئ
52 مفرج الكروب ج1 ص135

معى ألف فارس لقيتهم ولا أبالى" وأقسم بقوله "والله لا أستظل بجدار حتى أخذ بثأر الإسلام وثأرى"[53]

وفى نوفمبر 1160 م يهاجم الأمير اللص أرناط بعض الرعاة المسيحيين ويسرق قطعان ماشيتهم ليخرج الأمير مجد الدين ابو بكر بن الداية نائب نور الدين ويقاتل أرناط الذى وقع بالأسر ليقبع فى سجون نور الدين حوالى ستة عشر عاما (1160 - 1176م) ولا يحاول أحد من زملائه العمل على فك أسره، وفى عام 1162 م يتوفى بلدوين فى الثالثة والثلاثين من عمره ليخلفه أخيه الصغير آمورى (Amaury) (558-569هـ/1163 - 1174م)

توج هذا الملك البدين المتلعثم ذو السبعة وعشرون عاماً فى 18 فبراير 1162 م، وقد تميز بالشجاعة والمقدرة السياسية، وأن كان غير طاهر الذيل ولم يتورع عن مطاردة نساء نبلاءه فى مجتمع تميز بالإنحلال الأخلاقى، وقد ملك عليه إحتلال مصر تفكيره طوال سنوات حكمه، فإذا ما كانت سوريا قد أتحدت تحت راية نور الدين، فيجب إلا تكتمل وحدة جيرانه المسلمين، فهو على يقين أن دولته تستمد حياتها من تشتت القوى الإسلامية، بيد ان إكتمال جبهة من سوريا ومصر من شأنه فناء دولته والوجود الصليبى ككل، فلهذا عمل آمورى على عدم إنضمام مصر لدولة نور الدين، والعمل على الفوز بها، ثم كان الضعف السارى فى شرايين الفاطميين أكبر حافز لآمورى على الطمع فى إحتلال وادى النيل،

فنجاح نور الدين فى ضم دمشق وشيزر وإختفاء الأسر الحاكمة التى كانت تحالف وتهادن الفرنج، أدى إلى ضغط هائل على الكيان الصليبى فى الشام، وكذلك أدى الإستيلاء على دمشق إلى ظهور خطوط تماس بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس، كل هذا أدى إلى توالد يقين لدى الفرنج بإستحالة نجاح أى نشاط عسكرى لهم فى الجبهة الشرقية، لوجود الدولة النورية القوية بقيادتها المتحمسة للقضاء على الوجود الصليبى بالشام، فلهذا أدار الصليبيون رؤوسهم إلى الجبهة الجنوبية، مصر التى طالما أسالت ثرواتها لعابهم، وزارت أحلامهم منذ مجيئهم للشرق، كما أدى نجاح نور الدين محمود فى تكوين قوس المقاومة المتمثل فى الجهات الداخلية من الشام إلى زيادة شعور الصليبيون بالخطر، الأمر الذى أدى إلى محاولتهم التحالف مع أعداءهم التقليديين بالقسطنطينية ،

[53] إبن أثير التاريخ الباهر ص116 ، أبن الأثير الكامل ج 9 ص463

كما أدت الهزائم المتوالية التى تلقتها الجيوش الصليبية على يد نور الدين إلى ترنح الوجود الصليبى فى الشام مما ينذر بقرب إنهيار هذا الكيان، الأمر الذى إدار أنظار آمورى ناحية مصر الغنية بموقعها التجارى المتميز، الذى من الممكن أن يوفر موارد مالية ضخمة، وأمام طموح آمورى الجارف بمد سيطرته على وادى النيل، بينما إمكانيات دولته الذاتية أقل من تحقيق هذا الطموح، أرسل آمورى سفارة لأوروبا لمناشدة ملوكها إرسال حملة صليبية جديدة تكون وجهتها القاهرة، ولكن أوضاع أوروبا فى ذلك الوقت أجهضت مشروع الحملة فى مهده، الأمر الذى حدا بآمورى إلى القيام بنفسه بالسفر للقسطنطينية والإعتراف بسيادتها على مملكة بيت المقدس، والزواج من أميرة بيزنطية، فى سبيل نوال مساعدة بيزنطة فى مشروعه الطموح ،

وقد بدء أمورى محاولاته لأحتلال مصر مبكراً فى ذى القعدة 558هـ/سبتمبر 1163م متذرعاً بعدم إلتزام الخلافة الفاطمية بدفع الضريبة التى فرضها أخيه بلدوين عليها، حتى وصل لبلبيس وحاصرها، ولكن الوزير المصرى فارس المسلمين أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار أستخدم شقيق المصريين على مر العصور، النيل فقد كان فيضان النيل هو الجندى المصرى الذى دافع عن مصر وأجبر الصليبيين على الأنسحاب، بيد أن هذه المحاولة الفاشلة أوضحت للصليبيين مدى الضعف المسيطر على الدولة الفاطمية المحتضرة ،

وكان الوزير الأسبق على ضرغام يسمى شاور بن مجير السعدى ولكن ضرغام أجبره على الفرار ليلتجئ شاور بنور الدين فى ذو القعدة558هـ/أكتوبر 1163م طالباً مساعدته للعودة لمنصبه المسلوب، وزيران يتصارعان على مُلك مصر ضمن سلسلة من خمسة عشر وزيراً سبقوهما على الحكم توفى وزير واحد فقط منهم على فراشه، أم البقية فقتلى،

وإن كانت هذه الحادثة ليست أول لقاء بين مصر ونور الدين، فقد قام الوزير الفاطمى سيف الدين أبو الحسن على بن السلار وزير الخليفة الظافر بأمر الله، بإرسال الأمير الشيزرى أسامة بن منقذ بأموال إلى نور الدين لطلب مساعدته ضد الفرنج عندما أزداد ضغطهم على عسقلان، على أن يقوم نور الدين بمهاجمة أملاك الصليبيين بطبرية لإجبار الصليبيين على تخفيف ضغطهم على عسقلان، فقام الأمير أسامة بن منقذ بتجنيد ثمان مائة وستين فارساً بالمال الذى أرسله معه أبن السلار وأرسل معه نور الدين أمير من أمرائه ـ عين الدولة الياروقى ـ ولاقوا الفرنج المحاصريين

لعسقلان ليساعدوا والى عسقلان ناصر الدين ياقوت وقوات عسقلان على هزيمة الفرنج وإجبارهم على رفع الحصار عن المدينة[54]

ليجدها نور الدين فرصة ذهبية للإستيلاء على مصر وقفل أبوابها فى وجه الصليبيين وضمها لمحور المقاومة، وتم الأتفاق بين شاور ونور الدين على أن يدفع شاور لنور الدين ثلث دخل مصر، ومنح قوات النجدة أقطاعات بمصر فأرسل نور الدين معه حملة فى إبريل 1164م بقيادة أجدر قواده أسد الدين شيركوه ومن ضمن هذه الحملة فارس شاب ذو سبعة وعشرون عاماً هو أبن أخ لشيركوه أنه البطل صلاح الدين يوسف بن أيوب[55]، الذى كانت هذه أول لقاء له مع أم الدنيا التى أتاحت له برجالها ومواردها أمكانيات مقاومة الصليبيين، وعند وصول أخبار الجيش النورى القادم صحبة شاور حاول ضرغام الأستنجاد بالصليبيين مما جعل جميع المصريين ينفضون من حوله الأمر الذى أدى لمقتله فى النهاية، ودخول شاور والجيش النورى القاهرة فى مايو 1164م إيذاناً بعودته لمنصبه،

ولكن ما أن صفا الوقت لشاور ـ الذى ستغرق مكائده الشيطانية المنطقة فى الدم والنار ـ واستطاع فرض سيطرته على مقاليد الحكم حتى أنقلب على شيركوه ورفض اعطاءه ما وعد به نور الدين، مما أدى إلى حدوث مواجهات بين الطرفين، وقيام شيركوه بالتحصن فى بلبيس، فقام شاور بإستدعاء الصليبيين لطرد شيركوه، ويراسل شاور آمورى قائلاً "إن شيركوه طلع معى نجدة ضد ضرغام، فلما حصلوا فى البلد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيشاً ولا قرار"[56] بعد أن تعهد بدفع ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الطريق السبعة وعشرين من القدس إلى القاهرة، كما تعهد شاور بمنح هدية لكل فارس من فرسان الإسبتارية المشاركين فى الحملة، وتوفير علف أفراس الحملة،

وكان آمورى فى إنتظار هذه الفرصة التى لا تعوض فأنطلق بجيشه "لعلمه أن الخطر فى مقامه، إذا ملك أسد الدين مصر"[57] وقد تضخم الجيش الصليبى بعد إشتراك الحجاج القادمين من أوروبا به، بعد أن عهد لبوهيمند الثالث أمير أنطاكيا بإدارة شئون المملكة، ليجتمع آمورى وشاور بمدينة فاقوس وينطلقوا لحصار شيركوه فى بلبيس،

---

54 الإعتبار ص14 – 16

55 أرتبط صلاح الدين بعمه أسد الدين شيركوه منذ أن كان فى الرابعة عشر من عمره حيث صار من ضباطه، وألتحق رسمياً بخدمة نور الدين

56 الروضتين ج1 ص167

57 الكامل ج 11 ص134

ولكنهم فشلوا فى إقتحامها ولم ينالوا منها نصيباً[58] لمدة ثلاثة أشهر ـ من أغسطس إلى أكتوبر1164م، بالرغم من ضعف تحصيناتها بسبب بطولة شيركوه وعسكر نور الدين، وتلقى شيركوه مساعدات من القبائل العربية النازلة بجوار بلبيس، وبسبب هذه المقاومة، وورود أخبار الإنتصار الذى حققه نور الدين بحارم، تم عقد إتفاق على أن يغادر شيركوه وآمورى مصر أواخر 1164م، ليكون شاور المنتصر الوحيد، وأن كان بشكل مؤقت،

كل هذا والخليفة العاضد لدين الله[59](555-567هـ/1160-1171م) لا حول له ولا قوة، فقد أستعان وزيراه شاور وضرغام بأعداءه، سواء نور الدين محمود السنى المذهب، أو الصليبيين ،

ليسارع آمورى بالعودة لمملكته لعله يدفع عنها هجمات نور الدين الذى أستغل غياب آمورى فى مصر وعاث فى أراضى الصليبيين قتلاً وحرقاً، فقد زحف نور الدين على قلعة حارم التابعة لإمارة أنطاكيا ليحاصر المدينة التى أستنجدت بزعماء الفرنج المتواجدين بالشام، ليزحف أمير أنطاكيا بوهيمند الثالث بقواته، وكونت طرابلس ريموند الثالث ونائب قليقية البيزنطى قسطنطين كولومان والأمير الأرمنى ثوروس الثانى بالإضافة لحاكم مدينة حارم رينولد سانت فاليرى، لينسحب نور الدين من حارم حتى مدينة أرتاح لإستدراج الصليبيين بعيداً عن قواعدهم، ليطارد بوهيمند نور الدين متجاهلاً تحذيرات الأمير الأرمنى ثوروس معتمداً على ضخامة قواته البالغة ثلاثين ألف مقاتل، لينسحب ثوروس بعد تجاهل نصائحه، وتصطدم القوتان بالقرب من أرتاح، ويتبع نور الدين تكتيك فصل فرسان الفرنج عن مشاتهم، بتظاهر فرسان قوات حلب بالهزيمة حتى يتبعها فرسان الفرنج، لتنفرد فرسان قوات الموصل بمشاة الفرنج وتقضى عليهم، حتى إذا ما عاد فارسهم لم يجدوا مشاة ليحتموا بها ويلجئون إليها[60]، لترتد قوات حلب فى أثر فرسان الفرنج ومن أمامها قوات الموصل وباقى فرق الجيش ليتم حصر القوات الصليبية من كل جانب والقضاء عليها، وعدل المسلمون عن القتل إلى الأسر فتم أسر ما لا يحد[61] من الصليبيين وتقدرهم بعض المصادر المعاصرة بستة آلاف أسير عجت بهم سجون دمشق، ومن بين الأسرى بوهيمند الثالث أمير أنطاكيا وريموند الثالث كونت طرابلس ونائب قليقية البيزنطى،

---

58 مفرج الكروب ج1ص140

59 أبو محمد عبد الله بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد، ولد عام 546هـ/1151م وبويع بالخلافة عام 555هـ/1160م وتوفى عام 567هـ/1171م

60 الكامل ج9 ص468

61 الكامل ج9 ص469

لتسقط حارم فى قبضة نور الدين الأمر الذى يفتح له الطريق لأنطاكيا، وبعد هذا الإنتصار زحف نور الدين لمدينة بانياس التابعة لمملكة بيت المقدس مستغلاً إختفاء القيادات الصليبية من الشام، فآمورى بمصر، وكونت طرابلس وأمير أنطاكيا قابعين فى سجون نور الدين، وحاكم بانياس مع مليكه بناء على منصبه ككونستابل المملكة، وتسقط بانياس بعد حصار صغير، وتطول الأتهامات قسيس بالمدينة أسمه روجر وقائد حامية المدينة الفارس ولتر دى كيسنوى بأنهم تلقوا رشوة لتسليم مدينتهم، وتعتبر معركة حارم من المعارك الكبرى التى أدت إلى ترنح القوة العسكرية للصليبيين ،

ولكن كانت هذه الأحداث التى وقعت بمصر بمثابة عدسة مكبرة لنور الدين محمود وآمورى بينت مدى الضعف الضارب فى أوصال الدولة الفاطمية المحتضرة، الأمر الذى يوضح سهولة الإستيلاء عليها للأستفادة من خيراتها وحرمان الطرف الأخر من أمكانياتها الضخمة، وكما أن شيركوه هام حباً بمصر وطمع فى الإستحواذ عليها وأدرك سهولة هذه المهمة بسبب شيخوخة الدولة الفاطمية،

وبالفعل غادرت دمشق حملة وأن كانت صغيرة العدد ولكنها كانت مكونة من نخبة جنود الجيش النورى، لأكمال جبهة مقاومة الصليبيين فى يناير 1167م بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبى الذى إشترك فى الحملة على مضض، وقد توقع شيركوه قيام شاور بالأستنجاد بالصليبيين فلم يشأ حصر جيشه بين شاور وآمورى، فتوجه للوجة القبلى وعبر النيل ولم يُعلم به إلا وهو بناحية أطفيح[62] ليتمركز بالبر الغربى للنيل فى الجيزة فى إنتظار شاور وآمورى،

وصح ما توقعه شيركوه فقد أستنجد شاور بالصليبيين، قائلاً لهم "ملكُكم ولا مُلك الأعداء"[63]، وقد سارع آمورى لإنقاذ نفسه والوجود الصليبى قبل إنقاذ شاور، فهو يدرى إن ضم نور الدين لمصر بمثابة المسمار الأخير فى نعش الوجود الصليبى فى الشام، فعُقدت المحكمة العليا بنابلس برئاسة آمورى، وقد أجمعت المحكمة العليا على المسارعة لأنقاذ شاور بجميع بارونات المملكة، وعلى من لا يستطيع المشاركة فى حملة الإنقاذ دفع عشر دخله السنوى، وصدر أمر بتجمع كل فرسان ومشاة المملكة بمدينة عسقلان، ليبدء زحف الفرنج فى 30 يناير1167م على الصعب والذلول[64] ويقطع الصليبيون مراحل السفر لمصر والرجاء يقودهم والخوف يسوقهم[65]، حتى

62 الكامل ج10ص3 ، كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص28
63 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص29
64 الكامل ج10 ص3
65 التاريخ الباهر ص132

أجتمع الصليبيون مع شاور فتم عقد مفاوضات تحديد الثمن المقترح للصليبيين لتعقد صفقة بين شاور والصليبيين تنص على أن يبقى الصليبيون فى مصر حتى طرد شيركوه على أن يدفع لهم شاور مبلغ أربعمائة الف دينار نصفها معجل والباقى بعد التسليم، وصمم آمورى لإتمام الأتفاق أن يوقع عليه الخليفة الفاطمى العاضد أمام سفارة (إستكشافية) تضم كلاً من هيو صاحب قيسارية وجفرى مقدم فرسان الداوية من طرف آمورى الطامع فى مصر، الأمر الذى جعل من الصليبيين حماة الدولة الفاطمية ،

ليرسل شيركوه من معسكره رسالة لشاور يطلب منه التعاون على قتال قوات بيت المقدس، أنتهازاً لفرصة وجودها بعيدة عن مراكز تجمعاتها، مع إعطاءه لشاور كافة الضمانات على إنسحابه للشام بعد القضاء على الصليبيين، قائلاً له "أنا أحلف لك بالله الذى لا إله إلا هو، وبكل ما يثق به المسلم من أخيه، إننى لا إقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكن أحد من التعرض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك ألباً عليه، وما أومل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة وخلاصة عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز هذه الفرصة التى قد أمكنت، والغنيمة التى قد كتبت فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته وما أظن أنه يعود فيتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً"[66]، ليرفض شاور هذا العرض ويرسل الرسالة لآمورى، قائلاً "ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفرج"[67]،

وبالفعل قام شاور وآمورى بإتخاذ الخطوات التنفيذية لضرب جيش شيركوه، فقاموا بعبور النيل وهنا أتجه شيركوه جنوباً لأستدراج شاور وآمورى حتى الأشمونين بالمنيا، واتخذ موقعه فى قرية البابين الواقعة على حافة الصحراء بجيشه الصغير البالغ حوالى ألفى فارس، بعد أن جاءته جواسيسه بأخبار كثرة عدد جيش شاور وآمورى،

عقد شيركوه مجلس حرب أقترح فيه البعض الأنسحاب للشام لعدم التكافأ بين القوتين فقد قال بعض أمراء جيش شيركوه "إن هُزمنا ـ وهو ما لا شك فيه ـ فإلى أين نلتجئ، وبمن نحتمى، وحق لعساكر عدتهم ألف فارس وقد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم، أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف" حتى أخذ شرف الدين برغش مملوك نور الدين ـ صاحب قلعة الشقيف ـ بزمام الحديث مذكراً الأمراء بإن نور الدين سوف يحاسبهم فى حالة الأنسحاب بدون قتال من أمام شاور وآمورى ومخوفاً أياهم من لقاء نور الدين

[66] الروضتين ج1 ص168
[67] الروضتين ج2 ص64

فى هذه اللحظة بأن نور الدين سوف يسترد كل دينار أخذوه من بيت مال المسلمين طوال عمرهم بسبب عدم قيامهم بقتال الصليبيين قائلاً لهم "من يخاف القتل والجراح والأسر لا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو فى بيته مع النساء، والله لئن عدتم للملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون عليه ليأخذن أموالنا وما معنا من إقطاع وجامكية[68] وليعودن علينا بجميع ما أخذناه من يوم خدمناه إلى يومنا هذا ويقول لكم أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون ديار مصر يتصرف فيها الكفار"[69]، ليأخذ صلاح الدين طرف الحديث مشجعاً على القتال، وأمام هذا أخذ الجميع بخيار القتال مهما كانت موازين القوى،

وبالفعل أخذ شيركوه فى إعتباره الفارق الكبير فى موازين القوى بينه وبين الصليبيين وشاور، فصف جنوده على شكل هلال وجعل قلب جيشه أضعف من جناحاه، وأوكل قيادة قلب الجيش لصلاح الدين بينما تولى شيركوه قيادة الميمنة بنخبة قواته، مع إعطاء تعليماته لصلاح الدين بالأنهزام أمام جيش الصليبيين وشاور، لأستدراجهم بين جناحى جيشه لينقضا علي جيش شاور وآمورى كالكماشة، قائلاً له "هم يعتقدون أننى فى القلب، فهم يجعلون جمهرتهم بإزائه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا أنفسكم وإندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فأرجعوا فى أعقابهم"[70]

فشيركوه يريد فصل فرسان الفرنج عن مشاتهم، فالفارس الصليبى بدروعه الثقيلة، التى تحد من حرية حركته، وإن منحته حماية فعالة، كان لايستطيع الإستمرار فى القتال إلا لفترة محدودة يجب بعدها رجوعه للحماية بين صفوف مشاته ليستعيد نشاطه، فأراد شيركوه حرمانهم من هذا التعاون ،

أحتل شيركوه بعض المرتفعات الحاكمة على أرض المعركة ببعض قواته، بعد أن أنضم إليه قوماً من عرب الصعيد[71]، وتبدأ المعركة فى 18 إبريل 1167م بهجوم صليبى بقيادة آمورى على القلب ليقاتلهم صلاح الدين وهو ينسحب متظاهراً بالهزيمة، ليبتلع الصليبيون الطُعم، ويتوغلوا بين جناحى جيش شيركوه ليقفلا عليه الحلقة ويهاجم شيركوه مشاة الفرنجة بجناح جيشه الأيمن، وينفرد شيركوه بمشاة الصليبيين وتهاجم ميمنة شيركوه بقيادته ميسرة الجيش المشترك، ليتم تدمير الميسرة تماماً، ويثخن فى مشاة الصليبيين قتلاً، وينهزم باقيهم هاربين، بينما يجد آمورى نفسه

---

68 كلمة فارسية بمعنى راتب

69 التاريخ الباهر ص133 ، مفرج الكروب ج1 ص150 ، الكامل ج10ص4 ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص30

70 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص30

71 الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ص29 ، كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص29

وقد أحيط به، ليستطيع الفرار بأعجوبة تاركاً خلفه جثث أغلب فرسانه، وهيو كونت قيسارية ومعه بقايا الفرسان الصليبيين فى أسر شيركوه، ويسارع آمورى وشاور بالأنسحاب للقاهرة بعيدا عن شيركوه ليتعجب أبن أثير بقوله "وكان من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس يهزم عسكر مصر وأفرنج الساحل "[72]

وبمناورة رائعة لشيركوه الذى لا يهدء أتجه بسرعة غير متوقعة للأسكندرية التى رحب أهلها ووواليها نجم الدين محمد بن مصال بهم إستياءاً من تحالف شاور مع الصليبيين، وترك شيركوه أبن أخيه صلاح الدين بالأسكندرية ومعه خمسمائة فارس، وتحرك هو بباقى الجيش فى إتجاه الصعيد الذى رحب بشيركوه أيضاً حتى وصل لمدينة قوص وأنضم إليه عدداً كبيراً من الفلاحين المسلحين، فالقائد العبقرى على بينه أن آمورى يقاتله الوقت، فهو لا يستطيع الإستمرار أكثر من ذلك بعيداً عن مملكته المنهكه تحت ضربات نور الدين، فشيركوه لم يكن متعجلاً، وأسرع آمورى وشاور للأسكندرية، وحاصرا المدينة وبداخلها صلاح الدين وفرسانه الخمسمائة، وقد قلت الأقوات بالمدينة وأن صبر اهلها على ذلك الحصار "وصدقوا القتال مع صلاح الدين"[73] الذى أمتد لمدة أربعة أشهر، بالرغم من إغراءات شاور الذى أعلن إسقاط المكوس[74] إذا سلموا صلاح الدين، ووعود آمورى "سلموا إلى هذا البلد وأنا أحط عنكم المكوس[75] وأوسعكم عدلاً" ليجيب أهلها "معاذ الله أن نسلم الإسلام إلى الكفر"[76] وأن نسلم المسلمين إلى الفرنج[77]

أرسل صلاح الدين يطلب النجدة من عمه الذى أسرع شمالاً ليدخل الطرفان فى جولة مفاوضات تنتهى على أن يترك الطرفان مصر أيضاً فى يونيو 1167م، وقد كان نور الدين كثف هجماته على مدن الصليبيين ليجبر آمورى على سرعة العودة لأنقاذ مملكته، وهذا ما جعل آمورى يتعجل الموافقة على المفاوضات والأسراع لعاصمته، ولكنه أشترط على شاور قيامه بدفع مائة ألف دينار سنوياً للصليبيين، وكذلك بقاء عدد من فرسان الصليبيين للسيطرة والدفاع عن أبواب القاهرة، الأمر الذى يرجح كفة الصليبيين فى الصراع الدائر للسيطرة على مصر، ما ينعش الأمال الصليبية القديمة

72 التاريخ الباهر ص133
73 الروضتين ج1ق2 ص370
74 الضرائب ، المواعظ والإعتبار ج1 ص174
75 الضرائب
76 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص32
77 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص30

التى ما فتئت تداعبها أحلام الإستيلاء على القاهرة، الأمر الذى سيجعل منهم القوة العظمى بالشرق الأدنى ،

وقد شكلت هذه الضريبة التى أضطر شاور لدفعها سنويا عبئ ثقيلاً جداً عليه وكذلك كان وجود أبواب القاهرة تحت سيطرة الصليبيين ما لا يمكن أن يوافق عليه المصريون، وعليه حاول شاور أن يقوم بهوايته فى اللعب على الحبلين فقام بإرسال أبنه الكامل شجاع لطلب مساعدة نور الدين ضد الصليبيين وهو ما كان ينتظره نور الدين، فى الوقت الذى كان الصليبيون قد زاد طمعهم فى مصر وخصوصاً البارونات الذين حلموا بإقطاعات فى ريف مصر الغنى، وبالفعل طالبوا الملك آمورى بالزحف والإستيلاء على مصر، ومما زاد فى شجاعة بارونات بيت المقدس وصول وليم الرابع كونت نفرس بقوة كبيرة من الفرسان، وهو ما رفضه وتخوف منه آمورى، ولكنهم واصلوا الضغط على الملك الذى حاول ان يبين لهم أنهم لن يلاقوا مقاومة الجيش الفاطمى فقط لكن جميع أهل مصر، فالملك آمورى كان مكتفياً بالضريبة التى يحملها له شاور، طالما مصر خارج نطاق نفوذ نور الدين، ولذلك قال لمن ألح عليه بالزحف على مصر "المصلحة إلا نقصدها فإنها طعمة لنا، فإن قصدناها فإن أهلها لا يسلمونها[78]، صاحب مصر وعساكرها وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها"[79]،

فى النهاية أنتصر الرأى المطالب بالزحف على مصر ونحن قد عرفنا ان ملك بيت المقدس كان صوته مثل صوت أياً من بارونات، ففى النهاية زحف الصليبيون أواخر أكتوبر 1168م لغزو مصر، بعد أن أعلن نيته الهجوم على حمص، لدرء أنظار نور الدين عنه، وتم تقسيم الغنيمة قبل النصر، فتم منح الإسبتارية مدينة بلبيس فى حال الإستيلاء عليها، علاوة على عدة مدن أخرى وهى تنيس ودمياط والمحلة وأسكندرية وقوص وأسوان والبهنسا وأطفيح والفيوم، فالإسبتارية سقطت تحت عبء ديون أوقعهم فيها رئيسهم "جيلبرت الأسالى" مما جعلهم الأشد حماساً للحملة، أما الداوية فعارضت الحملة ورفضت الإشتراك فيها حسداً لما ستجنيه الإسبتارية ،

بينما يحاول آمورى خداع شاور فيرسل لشاور رسالة "إنى قد قصد الخدمة على ما قررته لى من العطاء فى كل يوم"

---

78 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص31

79 الروضتين ج1 ص170، مفرج الكروب ج1 ص 156 والكامل ج10ص11

ليرد عليه شاور "إن الذى قررته أنما جعلته لك متى أحتجت إلى نجدتك، أو إذا قدم على عدو، فأما مع خلو بالى من الأعداء فلا حاجه لى إليك ولا لك عندى مقرر"

ليرد عليه آمورى "لا بد من حضورى"[80]

فيرسل شاور الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار لكشف هدف آمورى، فأراد آمورى طمأنة شاور، فساق تبرير لا ينطلى على أحد، فقد زعم أنه علم بنية قوات أوروبية الهجوم على مصر، فأتى للدفاع عنها كما تنص المعاهدة بينه وبين شاور، معلناً أن حبه لمصر وخليفتها هو ما دفعه للإسراع لدفع الخطر الصليبى،

ليصلوا لبلبيس ليجدوا أبوابها مغلقة فى وجههم وبداخلها طى بن شاور، وعندما طلب آمورى من طى فتح أبواب بلبيس له قال له طى "على أسنة الرماح، أتحسب بلبيس جبنة تأكلها؟" فرد عليه آمورى "نعم هى جبنة والقاهرة زبدة"، وحاصر آمورى بلبيس وأقتحمها فى 4نوفمبر1168م/مستهل صفر564هـ ليرتكب الصليبيون كعادتهم مذبحة مروعة تعادل بشاعتها عدم جدواها، فقد تم قتل جميع من حوتهم أسوار بلبيس، وأسر أبن شاور وأبن أخيه، مما جعل المصريين يصممون على مقاومة الصليبيين حتى لا يتعرضوا لنفس المصير، ووصل الجيش الصليبى للفسطاط فى 13نوفمبر 1168م/ العاشر من صفر564هـ، ليجدوها كومة من الرماد بعد أن أحرقها شاور عقب إجلاء أهلها عنها إلى القاهرة بعد أن أستمرت النيران تعمل فى الفسطاط أربعة وخمسين يوماً، حتى لا يستفيد الصليبيون منها حيث كانت الفسطاط بدون سور يحميها، كما وصل الأسطول الصليبى مهاجماً تنيس وحاول إختراق نهر النيل للوصول لداخلية مصر ولكن فلاحى الدلتا سدوا فرع دمياط أمام السفن الصليبية مما أضطرها للأنسحاب لعكا،

وحاول شاور كسب وقت وجر الصليبيين إلى مفاوضات بعد رشوة الملك، وعرض مليونى قطعة ذهبية مقابل الجلاء عن مصر وإطلاق سراح إبنه وإبن أخيه، حتى تصل النجدة المنتظرة من نور الدين، فشاور قد أرسل رسولين متتاليين وعلى أيديهما رسالة لنور الدين "إن لم تبادر ذهبت البلاد"[81]، بعد أن راسل آمورى قائلاً "أن هذا بلد عظيم كبير وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه البته ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، ولا تعلم أنت أو أنا لمن الدائرة، والرأى أن تحقن دماء أصحابك

[80] الروضتين ج1 ص170
[81] مفرج الكروب ج1 ص158

ودماء أصحابى، وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً"[82]، فى الوقت الذى شعر آمورى بالإحباط، بسبب مقاومة القاهرة لجيشه، وخوفه على بلاده من نور الدين، ويتسرب إلى آذانه أنباء قدوم جيش النجدة النورى بعد إستنجاد الخليفة، فيوافق على عرض شاور متأثراً بنصيحة ميلز دى بلانسى، ولكن شاور لم يرسل لآمورى إلا خمسة ألاف دينار فقط، متذرعاً بعدم قدرته على جمع المزيد إلا إذا تحرك الجيش الصليبى بعيداً عن العاصمة، ليعيد آمورى إنتشار جيشه بعيداً عن القاهرة،

حتى الخليفة العاضد أرسل يستنجد بنور الدين وضمن الرسالة خصلات من شعور نسائه، وكتب بخط يده "هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج"[83] "واغوثاه، واغوثاه، واغوثاه، إلحق دين الإسلام، أدرك أمة محمد عليه السلام، يا نور الدين، يا نور الدين، يا نور الدين"[84]

بينما نور الدين لم يكن فى حاجة إلى أى حافز لطرد الصليبيين ومنعهم من إحتلال مصر، فسارع بإرسال شيركوه الذى أصر على إصطحاب صلاح الدين بجيش مكون من خمسة ألاف من المشاة وألفين من الفرسان، وما أن علم آمورى بإقتراب الجيش النورى حتى أتجه لسرياقوس فى إنتظاره لمهاجمته وهو ما يزال مرهق من عبور الصحراء، ولكن أسقط فى يده عندما علم أن شيركوه أتخذ درب غير مطروق ليصل للقاهرة، التى أستقبلته إستقبال الأبطال فى ديسمبر 1168م ويقيم معسكره بباب اللوق، وشاور ما زال يقول "الفرنج ولا أسد الدين"[85]

ويحاول آمورى الإستيلاء على أى مساحة من مصر لعله يتفاوض عليها أو ينشئ بها أمارة، فيرسل مائتى وخمسين فارس وألفى راجل للإستيلاء على قليوب، ولكنه وجد فلاحيها وأهاليها حشدوا له، فرجعت القوة الصليبية، فأرسل ثلاثمائة فارس وثلاثة ألاف راجل للإستيلاء على جزيرة إبيار، فتجمع فلاحيها وعرب البحيرة وعرب الفيوم، وعبرورا النيل الفاصل بينهم وبين القوات الصليبية، وألتقوا بهم وتم قتل جميع القوات الصليبية ولم يعد منهم إلى آمورى إلا أثنى عشر فارس فقط[86] وهنا تيقن آمورى ان الغنيمة فى الأياب فبعد أن جاء لمصر يطلب قرنين رجع الشام بدون أذنين،

---

82 الروضتين ج1 ص171

83 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص33

84 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص30

85 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص32

86 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص31-32 ، وهنا يطلق أبن أيبك على فرسان الصليبيين لقب القنطارية وهى الرمح الخاص بالفرسان

وقد أدت مغامرات آمورى فى مصر إلى تقليص الموارد البشرية والمادية صعبة التجديد للصليبيين ككل،

حاول شاور الأستعانة بالصليبيين على أن يحضروا بحراً لدمياط، فى الوقت الذى يحاول مخادعة شيركوه، وكما أعد مؤامرة لإغتيال شيركوه وكبار قادته، ويحرص على زيارته فى معسكره بشكل يومى، حتى يقوم صلاح الدين بالقبض على شاور، ولكن شاور يلقى مصرعه بأمر مباشر من الخليفة العاضد، ويلقى أبنه شجاع مصرعه فى قصر الخليفة، لتغلق صفحة الخضوع للصليبيين من مصر تماماً .

ليتم تنصيب شيركوه وزيراً للخليفة ويلقب بالملك المنصور، ولكن لم يمهل القدر شيركوه للحكم فقد توفى فى 23 مارس 1169م بعد شهرين من توليه الوزارة بمرض التخمة، ليختار الخليفة العاضد أبن أخ شيركوه وأصغر أمراء الجيش النورى ليستطيع السيطرة عليه، وربما كان صلاح الدين الوزير الوحيد الذى تدخل الخليفة الفاطمى فى إختياره منذ ضعف الدولة الفاطمية، ذلك الشاب الذى لم يتجاوز الثلاثين من عمره والذى أستطاع أن يحفر أسمه بحروف من ذهب، وأجبر أعداءه على الأعجاب بأخلاقه وفروسيته والذى كتب على يده بداية النهاية لدولة الصليبيين فى الشرق، والغريب أن هذه الأحداث حدثت خلال تولى أكثر ملوك بيت المقدس شجاعة ومقدرة، فقد دخلت مصر بقوة فى دائرة الصراع لتكون نهاية هذه الحركة الأستعمارية على يد جيوشها، فقد أدت حملة آمورى الفاشلة إلى تغيير موازين القوى فى المنطقة فبعد أن كانت مصر تحت حكم دولة ضعيفة وكان الشرق منقسم مذهبياً وسياسياً، وحدت حملة آمورى الشرق كله تحت راية نور الدين ليرث الجميع صلاح الدين.